

تاريخ الدول السرياني

تأليف أبي الفرج الملطى (تابع)

بفلم الاب اسحق ارملة السرياني

بعد المستنجد المستضيء ابنه

تولى تسع سنوات . بعدما اجبر الزعماء على المستنجد وقع اختيارهم على مبايعة احد بنيه الذي لم تحظر الخلافة بياله اصلاً وكان حلياً وضيعاً . فاستحلفوه ان لا يقتل باحد منهم وان يرد لهم كل ما انتزعه والده منهم . فاقسم لهم بذلك واحضروا اخاه واستحلفوه مثله وهددوه بالقتل وصنعوا مثل ذلك يجسيع ابنا الاسرة . ولما اقسروا جميعاً بايوة بالخلافة وأسموه المستضيء .

وفي السنة ١١٨٣ للبرنان (١١٧٢ م) عم الثلج الارض كلها حتى الهند التي لم يعرف اهلها الثلج قطماً . وقد بلغ عاظمها هناك اربعة عشر شبراً فيما قيل . وجمدت الانهار والنباتات وتلفت الحيوانات والطيور جوعاً وعطشاً . ولزم الناس بيوتهم كأنهم في قبور لا يتيسر لهم الذهاب من قرية الى قرية . وخنق الثلج كثيرين من سكان الخيام والمسافرين . وتفاقم الجوع في سبطية بسبب بُعد المسافة وطالب الزعماء من اسميل بن دنشمد صاحب قدوقية قجاً لهم ولذويهم يكفيهم الى الصيف لتلايلهم . وكان عنده اهرام كثيرة بمادة ذخيرة لكنه رفض طلبهم فوثبوا اليه وقتلوه هو وامراته وهي اخت السلطان تلج ارسلان وقتلوا معها خمبائة شخص من حشمها وعبيدها وجواريهما واجتالوا الاهرام . وارسلوا الى دمشق وطالبوا عمه دوالنون الذي كان متهمزماً (٣٤٤) من وجه السلطان فاقبل وتولى سبطية .

وفي السنة ٥٦٧ للهجرة (١١٧١ م) كتب نور الدين الى صلاح الدين ليلني الخطبة باسم العاضد خليفة مصر ويخطب خليفة بغداد . لكن صلاح الدين تخوف حدوث ثورة فاجل القضية . فاضطره نور الدين ثانية ولم يستطع ان يخالفه فاستشار زعماء مصر فاختلوا فرقتين احدهما حثت بذلك والثانية نهت عنه .

وحضر عنك رجل فارسي يقال له الامير العالم فقال لهم : انا ابتدي الحطبة
راكنيكم المهم . وحدث المنبر يوم الجمعة ودعنا للاستضي . ابن العباس بدلاً من
العاقد ابن علي . وواقعه الجمهور . وجرى مثل ذلك يوم الجمعة التالية في
مأجد مصر جميعها والتفت خلافة المصريين .

وكان العاقد خليفة مصر يومئذ مريضاً ولم يخرج به اصحابه بما تم خيفة ان
تعاجله المنون فتخلى دون ان يشعر بما صار . واعتقل صلاح الدين ابناء الخليفة
وآله وفصل الذكور عن الاناث قطعاً لنفوسهم . واعتق العبيد والجواري .
فأبتهج العرب اصحاب شيعة القدر والقضاء وشيعة مزيدي الحرية والاختيار .
ويقال ان خلفاء مصر لا يتحدرون كما يزعمون من علي وفاطمة بل من رجل
يهودي او مجوسي . وقد نظم الشعراء قصائد جمّة في الغاء الدولة الفرعونية
وظهور الدولة اليوسفية . وقام منهم اربعة عشر خليفة في المغرب : ثلاثة في
افريقية وهم : المهدي والقائم والمنصور . واحد عشر في مصر وهم : المنز
والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلي والامير والحافظ والظافر والعاقر
والعاقد .

واستقل صلاح الدين مصر (٣٤٥) لا يمارضه احد قطعاً سوى نور الدين
فقد كتب اليه يقول : فهذا احاصر الكرك فاحشد الجنود واستجبل في القوم
الى هناك . لكن صلاح الدين لم يلبه . فسخط نور الدين واعتزم الذهاب
بذاته الى مصر ليخرجه عنها . فاجتمع صلاح الدين بالزعماء وشاورهم في الامر
فسكرتوا ولم يدروا ما يقولون سلباً ام ايجاباً . وعند ذلك نهض الشاب ابن
اخي صلاح الدين وقال : اذا جاء نور الدين فاننا لمحاربه ولا ندعه يدخل
مصر . وواقعه في ذلك سائر الشبان زملائه . غير ان والد صلاح الدين وخاله
غضبوا عليهم ثم تكلم والد صلاح الدين وقال هل بين جميع الحضور من يرغب
لك الخير نظيري ونظير خالك ؟ قال صلاح كلاً . قال والده : كن على ثقة
من اننا انا وخالك اذا شاهدنا نور الدين خورنا امامه وقبلنا الارض خاضعين .
واذا كان ذلك كذلك فمن تراه يتجاسر ان يشهر السلاح عليه ؟ فهذه بلاد
مصر باجمها وغيرها ايضاً انما هي لنور الدين واذا شاء ان يعزلك فلا حاجة ان
يؤخذ اليك في جيوشه بل حبه ان يرسل شيخاً واحداً في سطرين منه فيلقي

الجل في رقبته وبقودك الى دمشق ويستعمل على بلاده من شاء . ثم نهض
 الشيخ نجم الدين وانتهى الزعماء . وقال : تقوا باننا جميعاً عبيد لنور الدين وله
 ان يصنع بنا ما شاء . وبعد ما انصرف الزعماء قال الاب لابنه صلاح الدين :
 انك فتي بعد لا عقل لك ولا سياسة عندك . الا تدري ان نور الدين اذا سمع
 انك تمردت عليه ترك كل شي . وتبعك حتى يقضي عليك ؟ ومن من الجنود
 يا ترى يتركه ويتبعك ؟ اعلم ان ما احذثك به الان لا بد من ان يصل اليه .
 اذن يجب ان ترسل اليه سفيراً يخاطبه خطاب متضخ ويصرح له بانك عبد (٣٩٦)
 مطيع لامره . وان احوال مصر مضطربة بعد وان الخوف من الفرنج يصدق
 عن الذهاب اليه فيخمد غضبه وينفض عنك . وقد صار مثلاً قال الشيخ .

وفي تلك الفصول اقبل جمهور غفير من النوبة الى اطراف الصعيد وسبوا
 قرى كثيرة . فوجه صلاح الدين الماسكر وانتشب القتال بين الفريقين وهلك
 الكثيرون من الجانبين ثم تقوى السودان وارسل صلاح الدين اخاه شمس الدولة
 تورانشاه في جيش ضخم . فانهزم النوبة وتبعهم العرب وغزوا وقتلوا واحتلوا
 قلعة ابريم واقاموا بها حفلة ولما عاد العرب عاد النوبة كذلك واسترجعوا قلعهم
 وارسل ملكهم سفيراً الى شمس الدولة وهو في قوس وسأله الصلح فلبى الطلب
 وشرط ان يؤدى جزية . وسير مع سفير النوبة سفيراً من قبله اسمه سمود
 الحلبي ووصل الى دونولا العاصمة واطلع على المضايق وعرف ان الاهالي لا
 يزرعون غير الدخن وان عندهم اشجار نخل وهم ياكلون دخنهم ملتوتاً بنجرهم
 ومواشيهم وليس عندهم ابنية سوى دار واحدة هي بلاط ملكهم . اما
 الاهالي فيجتمعون في الحيام والمغاور . قال السفير : شاهدت الملك يوماً قد
 خرج عرباناً وركب حصاناً عرباناً كذلك والتف بشرب اطلس غير مخيوط
 ورأسه أصلع ومكشوف ولما دنوت وسلت عليه ضحك وقهقه وأمر فكروا
 يدي شكل صليب ودفع لي خمسين رطلاً قحاً وأطلقني .

وفي السنة ٥٦٩ للهـ (١١٧٣ م) سار شمس الدولة المذكور الى ارض
 اليمن واحتلها وملكها . وفي ايار ١٤٨٥ لليونان (١١٧٤ م) مات (٣٤٧)
 نور الدين في دمشق بداء الخناق . وحديث الرحيبي الطبيب الدمشقي الذي
 ادركت انا الحقيير ابنيه الطيبين الفاضلين قال : لما تقافم داء نور الدين ودُعيت

الى عيادته مع سائر الاطباء. شاهدناه في بيت ضيق صغير وقتلنا له : ان يفصد
الوربد فآبى . ولم نَرَ ان نلج عليه لاننا كنا نهابه جداً . وما عم ان مات .
وكان رجلاً اعتيادياً طويل القامة دون لجة تحت ذقنه بعض شعرات بسيطة في
هندامه وكسوته مبغضاً للعرب المتسللين من علي . وقد استرجع من الفرنج
اكثر من خمسين مدينة وقلعة وابتنى بهارستاناً كبيراً ومدرسة في دمشق
ومسجداً في الموصل فخماً .

وقام بعد نور الدين ابنه الملك الصالح اسمعيل وحالفه جميع الزعماء وخطب
له صلاح الدين في مصر وضرب الدراهم والدنانير باسمه . اما سيف الدين
غازي صاحب الموصل فلما نعي اليه عته نور الدين فرح الفرح كله واوغر الى
المنادين لينادوا بالطلاق الحرية للاهالي في الشرب والسكر والبذخ علانية . ثم
حشد الجيوش واقبل الى بلاد ما بين النهرين واحتل الرها وحران وما حولهما .
وارسل الامير شمس الدين قائد الجيش الحلي الى زعماء دمشق يقول : ابشوا
الملك الصالح الى حلب قبل ان تُتزع من يديكم . غير انهم خافوا ان يتولى
هو سياسة الدولة فلم يدعوا الملك الصالح ان يقادهم . ثم ارسل صلاح الدين
يعاتبهم لانهم لم يستدعوه الى مساعدتهم الى ان قال : لو عرف نور الدين ان
بينكم من هو انشط متى لولاه مملكة مصر . والآن فاني قادم اليكم اذ
يتقرب علي ان ادبر مولاي وابن مولاي دونكم . عند ذلك وجه الزعماء
الصالح الى حلب وجعل قبة (٣٤٨) سعد الدين الحاجب وكان هذا حافظاً
فيما مضى لقلعة الموصل ثم انهزم واقبل الى دمشق .

وتخوف الدماشقة من صلاح الدين وبعثوا يطلبون الصلح من آموري ملك
اورشليم وقبلوا ان يؤدوا له جزية . الا ان اموري توفي في عكة في ١١ تموز
بعد مرور اربعين يوماً على وفاة نور الدين . وقد اشتد كد المسيحيين بوفاة
هذا الملك البطل الذي كان عرب مصر وسورية قاطبة يهابونه . وخلفه ابنه
بغديون الرابع .

ولما بلغ قلعج ارسلان سلطان قونية خبر وفاة نورالدين حليف دولتون بن
دنشند زحف الى سبسطية ونوقيسارية وقومانا وملكها . فصار دولتون الى

قسطنطينية واستنجد بملك اليونان . وانتهت يوم ذاك زعامة بني دنشند التي استقرت ١٢٢ سنة .

ثم ان ابيو ميافرقين ضايق الارمن السناسنة فارسلوا الى شاه ارمن صاحب خلاط وسأوه حصونهم . وعاد ملك الكرج فانترع مدينة أني من العجم . وفي السنة ٥٧٠ للمرب (١١٧٤ م) حشد صلاح الدين جيوشه واقبل الى دمشق يتظاهر بأنه قادم ليسانء ابن مولاة ودخل دار ابيه واقام بها ثم ورس الى ريجان الحضي حافظ القلعة ففتح له بابها ودخلها اخوه سيف الاسلام واصحابه واحتلوها وايزد الخطبة للملك الصالح اسمعيل . ثم غادر دمشق الى حمص وأخذها ووصل الى حماة وملكها . ووصل الى جبل جوشن قرب حلب فحشد اميرها الحلبيين قاطبة كباراً وصغاراً في ميدان باب العراق وشاروا الى الصالح ان يخرج وبكأنهم (٣٤٩) الجماعة كلاماً مؤثراً . فانصب في راس الميدان ونال : يا ايها الحلبيون انكم انتم ربيوتوني وهذا استغيث بكم وليس لي اب او أخ سواكم . واجهش بالبكاء حتى كاد يختنق وبكوا جميعاً لبكائه وصرخوا صرخة واحدة وقالوا : اننا كأننا عبيد لك وفدوى امامك .

اما الفرنج فقد بشوا السفراء الى صلاح الدين يلومونه وينكرون عليه عمله هذا وقالوا له : انك بملك هذا تنكر حميل مولاك . فاصغ الى كلامنا واترك حلب والافاننا بأجمننا نسب اليك ونناهضك . ولما رأى صلاح الدين ان الامور لن تتسنى طبعاً لما يريه وانه يتضرر عليه ان يخذع الحلبيين انقلب عائداً الى بعلبك واحتأها وسار الى حمص وملك قلعتها . ثم ارسل الحلبيون الى سيف الدين صاحب الموصل يقولون : اذا تركت صلاح الدين يحتل حلب فكن على ثقة بأنه لن يترك لك الموصل . فسير جيشاً كثيراً بقيادة اخيه عز الدين وانتفى مع الحلبيين وساروا معاً الى حماة وارسلوا سفيراً الى صلاح الدين وهو في حمص يلحون عليه ليرد جميع حصون مولاة وبكفي بدمشق لا غير ويكون كسائر الامراء الخاضعين للملك الصالح . فأجابهم صلاح الدين : اني لم آت لاحارب ابن مولاي بل لاحفظه واحفظ بلاده وخزائنه . ولن اخالف قولكم مطلقاً . لكنهم لما عرفوا استعدادهم للصلح ظنوه ضعيفاً فاستحقروه وقالوا له : يجب ان تقادر سورية كذلك وتعود الى مصر وليس لك عندنا الا السيف . ثم

زحفوا الى الرستن وأقبل صلاح الدين اليه وتبارز الخيشان في قرون حجارة فانكسر المواصلة والخنيون وارتدوا الى ورائهم منهزمين . وأمر صلاح الدين جيوشه ان يقفوا ولا يتبّعوا المنهزمين ولا يقتلوا احداً . وعند ذلك ارسل اليه (٣٥٠) الملك الصالح يسأل الصلح وان يتولّى صلاح الدين دمشق وحماة وحمص ويترك سورية الخارجة للصالح . لكن صلاح الدين لم يرضَ الا بعدما اتفوا الى ذلك المعرة وكفرطاب . عند ذلك وافقهم وأقسم بان يخطب للملك الصالح في كل البلاد التي تحت يده وان يوافي الى مساعدته كلما دعت الحاجة .

ولما بلغت المستضي خليفة بغداد اخبار نصرة صلاح الدين ارسل اليه حلالاً ملكيةً وسيفاً وألويةً وفرماناً . وكان قطب الدين قياز قد خرج يومئذٍ على الخليفة وحاصره في بلاطه . فبلغ الخليفة وقصد السطح وأمر المنادي ان ينادي بأعلى صوته ويقول : ايها البغداديين هذا وقت مساعدتكم لمؤلكم وإمام دينكم فأبدوا تحمسكم في سبيل ايمانكم . وعند الصيحة المدينة واقبل الاهالي في سيوفهم وعصيهم وقرايد وحجار وهزموا قياز وادوازيه الى الصحراء فادركهم العطش وعثروا على صهرنج . خنقت فيه الحيات فشربوا منه وانتشر الرباء فيهم وفي حيلهم وتوجهوا الى الموصل وهلك اغلبهم في الطريق وقضى بقيتهم في الموصل .

وفي السنة ١١٨٦ للهونان (١١٢٥ م) خرج زعماء ارمينية على مليح أميرهم وحاولوا ان يقتلوه فانهمزوا الى احد الحشود ووثب اليه الحراس وقطعوه ارباً ارباً والقوا جثته للكلاب انتقاماً منه لا اترله بالمسيحيين من الاعذبة والمساوي . ثم استدعى الزعماء روفين ابن اخيه اسطفان من طرسوس وادّره أمرهم فأجهز على قتلة عمه مليح ولا سيما لانهم ألغوه للكلاب .

وفي السنة ٥٧١ للعرب (١١٧٥ م) ارسل سيف الدين صاحب الموصل الى الصالح في حلب (٣٥١) يلومه أشد اللوم لانه هادن صلاح الدين . ثم حشد نحو عشرين الف فارس واقبل الى حلب وفك زعماء الفرنج المسيجون هناك منذ اميد طويل . وباع قنص طرابلس بثمانين الف دينار وجوسلين بن جوسلين بخمسين ديناراً والبرنسي امير انطاكية بمائة وعشرين ديناراً واستحلفهم ان يساعدوا العرب دائماً .

وحشد صلاح الدين كذلك عساكره وزحف الى اطراف التركين بين حلب وحمّة وتبارزوا فانكسر الحليّون والمواصلة ولاذوا بالفرار واحتلّ صلاح الدين خيامهم واثقالهم وشاهد هناك طائفة من الطيور كاليم والحمام والبابل في اقفاصها ومائة من العامرات المطربات. واستدعى واحداً من مشخصي الروايات وولّاه الى سيف الدين مع تلك الاقفاص وقال له : اذهب وسلّم بدلاً مني على سيف الدين وقل له : ارجع الى ششتك ولاعب طيورك لانها تحبّك كل خطر . وبعد ما اوثق زعماً الموصل وفي جملتهم فخر الدين عبد المسيح فكّهم وألبسهم ثياباً واعطاهم خيلاً وهدايا وردهم بسلام . وترك حلب على ما كانت ومزّ بقلعة براءة واحتلّها وسار الى منبج وتولاها وعثر في قاعها على ثلاثمائة الف دينار . ثم اقبل الى عزاز وحاصرها اربعين يوماً واحتلّها .

وفي السنة ١٤٨٢ للهجرة (١١٧٦ م) شاد منويز ملك اليونان مدينتين في حدود الاتراك ووضع فيهما الجنود وجعلوا يزعمون اصحاب قلع ارسلان وكان منويز يلجّ عليه ايوذ الى آل دنشند اماكنهم فأبى . فوجه الملك ثلاثين الف فارس يوثاني مع دولتون التركي بن دنشند وحاصروا نوقيدارية (٣٥٢) وكتب لهم اتراكها رسالة في اليونانية بلسان اهلها النصارى يقولون : لا تصدقوا دولتون فهو يواصل الاتراك برسائله ويحاول ان يقدركم ويدفعكم الى اصحابه . فخاف اليونان وغادروا المدينة وتبّعهم الاتراك وفتكوا يابن اخت الملك . فسخط الملك وحشد جيوشاً ضخمة وسار الى حدود الاتراك وترك المعجلات وانتقلها . وجعل اليونان ينجون ويحرقون القرى التركية وهي خالية من الناس والزاد . على ان الرجالة الاتراك خرقوا الجبال والادوية العميقة ووصلوا الى معسكر اليونان ونهبوا ما به واحرقوا عجلاتهم وجعلوا يدحرجون من قم الجبال حجارة ضخمة سقطت عليهم وخيلهم . وعند الليل ارسل الملك الى السلطان سفيراً يطلب الصلح . فلبى طلبه ولا سيما لانه هو كذلك كان خائفاً . ثم اقام ثلاثة امراء اتراكاً سيّهم في خدمة الملك حتى وصل الى حدود بلاده . وكان مع اليونان كثير من الكنائس (النقالة) والصلبان والحال في جملتها صليب يشتمل على قطعة من عود الصليب انتهبها الاتراك جميعها ثم ارسل الملك الى السلطان ذمياً وافرا واسترجع عود الصليب .

وفي هذه السنة مات نجم الدين صاحب ماردين واستغرق ملكه اثنتين وعشرين سنة وعمل النصارى وكنايسهم واديارهم خير معاملة وخلفه ابنه قطب الدين فتحرش بعثيه صاحب حافي وصاحب دارا ثم صالحها وأقبل اليه طائعين . ولما ذاع خبر موته سارع الممديون ليغزوا بلده فاستجمع قواه ووثب اليهم وقتل بالب منهم وانتزع منهم (٣٥٣) اثني عشر الف رجل وانهزم من بقي منهم . وفي السنة ٥٧٢ للمرب (١١٧٦ م) شخص صلاح الدين ثنية الى حلب فتذلل له الصالح صاحبها وطلب المزايدة اذ تمذر عليه ان يقاومه . فارتضى وايرم صاحباً عاماً مع حلب والموصل وارمينية الصغرى . ثم وجه اليه الصالح اخته الصغيرة فطلبت منه غزاز فأجاب الى طلبها . وبعد هذا غادر حلب الى دمشق واقتن بهصة الدين امرأة نورالدين وقتل اخاه شمس الدين تورانشاه امور دمشق وعاد الى مصر وابتنى سوراً واحداً يحدق بمدينتي مصر والقاهرة وشاد قلعة فوق الجبل المتوسط .

وفي السنة ٥٧٣ للمرب (١١٧٧ م) وهي السنة ١٤٨٩ لليونان (١١٧٨ م) زحف صلاح الدين في جيوش كثيفة الى عسقلان وغزا واستأسر وسفك دماً كثيرين من النصارى . فذعر الفرنج وكان ملكهم في اورشليم مبتلياً بداء الجذام فتشجع واجتمع بمجنوده والتحدر عن حصانه وخبر على وجهه امام الصليب المقدس وجعل يبكي فتأثرت قلوب الجنود وانفسوا انهم يحاربون ويجهادون حتى النهاية . بناء عليه اغمضوا هنية حتى تواعل الاتراك في الضواحي وانهمكوا في النزو وكفوا عن استئناف القتال معتقدين ان الفرنج ضعفاء . اما الفرنج فحفظوا اليهم وادركوهم وهم يعبرون النهر . وارسل الرب عناية شديدة جرفت الزمزال من ناحية الفرنج على الاتراك وأعمتهم . ووضع الفرنج فيهم السيف فتهقروا وضلوا وتناحوا في الصحراء القفراء . ولحقهم الفرنج خمسة ايام وهم يفللونهم ويحسونهم طائفة طائفة ويرتقونهم ويقتلونهم وقد اذلت صلاح الدين مع قليلين الى القاهرة . قال المزيخ : شأدت (٣٥٤) حاملي البشري راكبين وسمعت المنادين ينادون في شوارع مصر ان السلطان انتصر والفرنج انكسروا فبادرت لاستنجدهم عن كيفية الانتصار فقالوا : افرحوا وابتهجوا لان السلطان سالم . فعرفت ان البشري كانت عكس الواقع .

مكتبة صادر

اهدت مكتبة صادر الى ادارة مجلة المشرق الكتب التالية :

من العهد الفريد الجزء ١٦ : الكتابة والكتاب

الاجزاء ١٧ ، ١٨ ، ١٩ : اخبار الخلفاء

الجزء ٢٠ : اسراء المسلمين

الجزآن ٢١ ، ٢٢ : ايام العرب

الجزآن ٢٣ ، ٢٤ : طرائف السراء

الجزء ٢٥ : الاعاريض والقوافي

الجزء ٢٦ : النناء والمنشور

تحقيق وشرح كرم البستاني

الموزع الوحيد : المكتبة الشرفية - ساحة النجمة - بيروت

•

مكتبة دار المعارف

عمر الخيام : رباعيات - تريب وديع البستاني

حبيب صادر : صحة القتال

الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستار احمد فراج : الورقة

لاي عبد الله محمد بن داود بن الجراح

الدكتور شارل بلوندل : المدخل الى علم النفس الجماعي - تريب الدكتور

• حكمة هاشم

عباس محمود العقاد : ابن رشد

حنا الفاخوري : الجاحظ

عادل غضبان : النسخ نيب الخداد

سارع ميرو بالقاهرة - مصر

PUBLICATIONS DE L'IMPRIMERIE CATHOLIQUE

MAURICE DUNAND : DE L'AMANUS AU SINAI — Sites et Monuments. — X 240 pp., 269 simili-gravures, 1 carte. — Préface de M. CHANA, Mise en pages du Fr. CRUZ-MERMY — 1953.

TOUTE LA GAMME DES DICTIONNAIRES

- LE DICTIONNAIRE ARABE CLASSIQUE ILLUSTRÉ (*Mounjed*).
- LE DICTIONNAIRE ARABE CLASSIQUE ILLUSTRÉ (*Petit Mounjed*)
- LE VOCABULAIRE ARABE-FRANÇAIS.
- LE GRAND DICTIONNAIRE FRANÇAIS-ARABE.
- LE PETIT DICTIONNAIRE FRANÇAIS-ARABE.
- LE PETIT DICTIONNAIRE ARABE-FRANÇAIS.
- LE DICTIONNAIRE ARABE ANGLAIS.
- LE STUDENT'S ENGLISH-ARABIC DICTIONARY.
- LE STUDENT'S ARABIC-ENGLISH DICTIONARY (*sous presse*).
- LE DICTIONNAIRE JURIDIQUE, POLITIQUE, COMMERCIAL
Français-Arabe.
- LE DICTIONNAIRE JURIDIQUE, POLITIQUE, COMMERCIAL
Arabe-Français.

Est en vente

A LA LIBRAIRIE-ORIENTALE

Place de l'Étoile — Beyrouth (Liban)

DISTRIBUTEUR EXCLUSIF DES ÉDITIONS DE L'IMPRIMERIE CATHOLIQUE

وفي هذه السنة تم الصلح بين قلع ارسلان ومنوئيل ملك اليونان وأقبل قلع ارسلان الى ماطية وشدد عليها اربعة اشهر ولم يدخلها وأمر جنوده فابتنوا لهم بيوتاً من لبن ليشربوا بها وشادوا له بيوتاً واسعة بججارة نقلوها من المقابر. أما امير المدينة وهو من عشيرة دشمند فخاف ان يتفق الزعماء محتجين بالفلان. ويسلوه المدينة فأرسل الى السلطان في الأمان وسار الى حصن زياد. فاحتل السلطان ماطية يوم الاربعاء ٢٥ تشرين الاول ١١٨٩ لليونان (١١٧٨ م).

وفي السنة التالية اتفق الفرنج قاطبة مع الملك بغدوين وابتنوا مدينة على شاطئ الاردن في مكان يقال له معبر يعقوب كي يضايقوا دمشق .

وسار صلاح الدين من مصر الى بعلبك بسبب خروج حاكمها عليه وشدد عليه الحصار حتى طلب الهدنة وسأله المدينة. ثم انقلب الى فلسطين فثار الفرنج وهزموه وغزوا نواحي العرب وانصرفوا . واذا كانوا مطمئنين هادئين كانوا هم احرزوا النصر باغتهم كمناء العرب واعتقلوا منهم نحو مائة بحارب وقبضوا على رئيس الفرير . ثم توجه صلاح الدين الى المدينة التي احدها الفرنج وامتلكها وكان فيها خمسمائة من الاخوة الفرير فلما شاهدوا العرب قد تغلبوا عليهم ألقى البعض بنفوسهم في النار فاحترقوا والبعض في نهر (٣٥٥) الاردن فاختنقوا والبعض على الصخور فترصصوا وقضوا . وحصلت البقية سيوف العرب .

وفي السنة ١١٩١ لليونان (١١٨٠ م) وعك منوئيل ملك اليونان ولما شعر بدنو الاجل انتقل الى احد الاديار ووضع التاج لابنه ألكس وبنيه . وجعل امراته وهي والدة ألكس راهبة واناطاليا خزان الدولة . ونصب اثني عشر زعيماً ليشرفوا على تدبير الجيوش . غير ان الملكة الراهبة ارتكبت القبيح مع واحد من اولئك الزعماء الاثني عشر وحاول سائر الزعماء ان يخلعوا ابنها ويقيموا ابنة منوئيل وهي من امراته الاولى بدلاً منها ويأبى زوجها بالملكة ولكنهم لم يتوفقوا . وما عم ان ظهرت المكيدة وخاف الزعماء وانهمزوا الى الكنيسة الكبرى والتحم القتال ضمن المدينة سبعة ايام وسفكت الدماء . وصوب احزاب الملك المنجنيقات نحو كنيسة اجيا صوفيا . وسار ثودوسيوس البطريك وقابل الملك وأمه فأقما له انها لن يؤفيا احداً متن هو ضمن الكنيسة فخرج جميعهم مطمئنين . لكن الملك وأمه خرقا الايمان وسلا عيون الزعماء الاحد عشر وقتلا

احزابهم . فامتعض البطريك وأبره الحرم على المدينة جمعا . وغادرها الى دير قريب وألقى قرع النواويس والدلالة تسمية شهير وجهارا يشيعون الموت ويدفنونهم دون صلاة .

وفي تلك السنة وجه السلطان قلع ارسلان جيشا الى رعبان فوثب اليه جنود دمشق وهزموه الى تبدرقية . وكان ذلك الجيش منجذبا في محاربة الفرنج . وفي هذه السنة وهي السنة ٥٧٥ للمعرب (١١٧٩م) مات الخليفة المستضي . وخلفه ابنه الناصر .

بعد المستضي . الناصر ابنه

تولى سبعا واربعين سنة . ولما يوبع بالخلافة قبض على الوزير ابن الطار وزجه في السجن وأرتقه وانتزع كل ما له . ووقعت وفاته ليلة الاربعاء ١٢ ذي القعدة (٣٥٦) ولما شيعوه ثار البغداديون وطرحوه عن كتف حماله وفسخوه وشذوا في ذكره جبلا وسحبوه في البلد ورضع الديان يده مفرقة وهم يقولون : وقع لنا يا مولانا . وظلوا يسخرون به حتى اقبل الاتراك ونقلوه ودفنوه . وحدث في تلك السنة غلاء فظيع ووباء . قتال شل الارض كلها . .

وفي السنة ١٤٩٢ لليونان وهي السنة ٥٧٦ للمعرب (١١٨١م) زحف صلاح الدين ليناوش السلطان قلع ارسلان بسبب صهره نور الدين بن قرا ارسلان بن داود بن ارتق صاحب حصن كيفا . وكان هذا يبي . معاملة زوجته وهي ابنة السلطان ولا يراعي حقوق الزواج فأرسل يتهده . فاستنجد بصلاح الدين فكتب الى السلطان يسأله ان ينقذ لصدقه فأبى . فاتفق صلاح الدين مع الفرنج الذين في ساحل البحر وحشد الجنود وسار يريد حلب وحل في برج قرا حصار عند نهر الازرق بين الحصن وحصن منصور . ثم زحف الى نهر كركو واقبل اليه نور الدين فترعب به وأمنته . وبعد هذا ارسل السلطان سفيرا الى صلاح الدين وجرت المصالحة بعد ما استخلف نور الدين ان يعيش مع امراته عيشة مرضية ومحترما احترام ابن لايه . وارتحل صلاح الدين من هناك الى النهر الاسود ودخل جنوده ليغزوا ضواحي قيليقية وكان دوفين صاحبها قد فك بجماعة من الرعاة التركان وسي نساءهم واولادهم وواشيهم . فارسل روفين

كتاب خضوع وتذلل إلى صلاح الدين في ذهب وافر وأعتق خمائة من الأسرى (٣٥) الأتراك وبعد ما عقدا الصلح سافر صلاح الدين وعاد إلى أريحا وبعثهم سورها .

وفي تلك الغزوات سرح البرنس صاحب انطاكية امرأته اليونانية الشرعية واتخذ امرأة زانية . فحرم البطريك الانطاكي القيس الذي صلى عليها وحرم المدينة كلها وألقى قرع النواقيس والصلوات . فسخط البرنس ونهب كنائس الفرنج واديهم بأسرها . واذ ذاك وافى بطريك اورشليم مع القمامة وصالحوه ورافقوا على اقتنائه بالمرأة الغير الشرعية ورد كل ما سلبه من الكنائس والاديار .

وفي تلك السنة مات سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل . وكان مدعياً الرغد والرفاهية ومعاقرة الحرة . وعاش المواصل في أيامه عيشة اطشنان وخصب . وخلفه اخوه عز الدين مسعود ودعي ابا الفتح وسار سيرة وقية منتظمة . أما صلاح الدين فصار إلى دمشق وغادرها إلى مصر وانجز ببناء قلعة القاهرة . ومات اخوه شمس الدولة في الاسكندرية .

وفي السنة ٥٧٧ للعرب (١١٨١ م) مرض الملك الصالح اسمعيل صاحب حلب ولما شرب دواء الاجل ارسل إلى ابن عمه عز الدين مسعود يحثه ليلسارح ويتولى مكانه قبل قدوم صلاح الدين . واجتمع بالرعا . واستحلفهم في ذلك ومات . قيل ان احد العبيد سقاه سمّاً في عنقود غيب وقيل بل مات بداء . المفصل . وقد بكاه الحلبيون (٣٥٨) والياروقيون القاطنون في ضواحي حلب . وأرسل هؤلاء إلى عماد الدين زنكي صاحب سنجار يستدعونه ليلسوه المدينة . لكن الحلبيين ارسلوا يتهددونه لينصرف عنهم والأفهم مستعدون ان يبتقلوه ويسبوا معاملته . فلم يبرأ إلا الرحيل عنهم وعندئذ وصل عز الدين مسعود من الموصل وقصد القلعة واحتلها واقتن بأم الملك الصالح وارسلها إلى الموصل . ثم فتح الخزان وهي مملوءة منذ عهد نور الدين وزنكي أموالاً وافرة وارسلها بأجمعها إلى الموصل . وعقد هدنة مع يوهيند البرنس صاحب انطاكية لمدة سنتين

(١) لم يوافق البطريك والقمامة على الزواج الثاني بل تركوه متبذلاً بالحرم بسبه . واكتفى البطريك بالناء حرمه للمدينة لا غير .

وترك في قلعة حلب ابنه نور الدين الصغير واقام له وصياً وتوجه الى مرج قرا حصار
وبعث سفيراً الى اخيه عماد الدين صاحب سنجار وكان قد غادرها في عياله
وابنائنه واهله الى قرقيسيا معولاً على الاستغاثة بصلاح الدين ليساعده ويعيد اليه
مملكة ابيه . فقال للسفير اني ان ارجع ما لم يعطني حلب او الموصل او ما
بين النهرين . ووافق عز الدين على ان يرليه حلب فقط ويقيم ابنه في قلعتها .
فلم يرافقه عماد الدين محتجاً بأنه لا يرضى ان يكون تحت طاعة ابنه في حلب .
فأضاف عز الدين الى ذلك عربان والمجدل وغيرهما من بلاد الحايور فلم يرض
عماد الدين . عند ذلك اشار الزعماء بان يعطيه حلب وقلعتها ولا يناهضه بها لا
يتيسر له ان يصونه من صلاح الدين . ثم قالوا له : انك لم تترك شيئاً في حلب
وقد نقلت ثروتها جميعها الى الموصل واخيراً اتفق الاخوان واستولى عماد الدين
على حلب وضواحيها وترك سنجار والموصل لعز الدين .

وفي تلك السنة سارت سفن كبيرة من سفن الفرنج الى دمياط وهم في
مرادعة مع العرب (٣٥٩) لكن العرب غدروا بهم واعتقلوا الفين وخمسة من
تجارهم وملاحيم محتجين بانتهاء مدة الهدنة . ولذا خرج الفرنج الى مدينة
ايالة على ساحل البحر الاحمر واعدوا سفناً كثيرة ومراكب وساروا في اماكن
لم تسر فيها سفن انفرنجية قطعاً واحلاً واحتلوا كثيراً من سفن العرب وهي
مرسقة اموالاً وذخائر وافرة وفكروا بجهيز من اهالي عيذاب وسير صلاح الدين
من الاسكندرية سفناً في احوال جبال في البحر ادركت سفن الفرنج وقتل
الكثيرون من الجهتين .

وفي السنة ١٤٩٤ لليونان (١١٨٣م) احتال اندرونيقوس الزعيم اليوناني
الذي سبق الملك منوئيل فطرده من العاصمة فأغوى الكس الفتي وانه وعاد الى
قسطنطينية يتظاهر بالطاعة . وما عم ان زج في البحر ام الفتي وابنتها وصهرها
وفك سراً بالفتي الكس . وقتل اكثر من الف زعيم واحرقهم وسمل عيون
بعضهم . وحمل هذا الشيخ النجس على امرأة الكس واغتصبها ونفى الفرنج من
العاصمة . ولما انصرف هولاء احرقوا اربعة عشر ألفاً من اديار وقرى بلاد
اليونان . وبعد ذلك اقبل ملك صقلية واجتاح مدناً يونانية واخلاها من السكان .
وفي السنة ٥٧٨ للعرب (١١٨٢م) زحف صلاح الدين من مصر الى دمشق

والى حلب وحاول ان يحتلها. لكن الزعماء اشاروا عليه ان يعبر الفرات أولاً ويحتل مدن ما بين النهرين وأثر ثم يعود الى حلب ويملكها بسهولة. فاقنع وعبر الفرات ومرت بالرها وحران واحتلها واحتل الرقة ووصل الى حران فدفع اليه حراسها المفاتيح فتولاه وتولى بلدة ماكسين. وعامل بالحسن اهلها الحايير وسار (٣٦٠) الى نصيبين وتبعها اصحابها لمبارزته فوضع هناك جيشاً صدهم عن القدر والرواح فتضايقوا وساروه المدينة. وسار الى الموصل وحاصرها من جهاتها كلها. فأرسل عز الدين صاحبها الى خليفة بغداد يسأله ان يتوسط في الصلح بينه وبين صلاح الدين فلبى طلبه وأرسل سفيراً في ذلك. فطلب صلاح الدين ان يزدي له المواصلة نفقات رحلته او يتناولوا له عن حلب. فقالوا: ليس عندنا ذهب اما حلب فصاحبها هو عماد الدين وليس في إمكاننا ان نعطي ما لا نملك. فتركهم وانطلق الى سنجار ونازلها وانتزعتها من شرف الدين بن قطب الدين. وورد. ومن هناك اقبل الى دارا وقابله صاحبها صمصام الدين بهرام من بني ارتي واذى له الطاعة فترك له المدينة وعاد الى حران وسرح الجنود ليستريح كل منهم مدة الشتاء. وصوم العرب وعيدهم وظل هو هناك مع القليلين. وتخوف المواصلة ان يعود اليهم صلاح الدين في الربيع ويحتل مدينتهم كما احتل سنجار فأرسلوا الى شهرامان صاحب خلاط يستجدونه فلبى طلبهم بمجوداً واتفق مع ابن اخته قطب الدين ايلغازي بن أبي بن تيمورداش صاحب ماردین خال عز الدين صاحب الموصل. واحتشد الماردينيين والموصليين والجلاليتين في البادية وجاءهم كذلك ألف وسبعمائة فارس من الياوقين المجاورين حلب وتأهبوا قاطبةً لمناوشة صلاح الدين. فلما سمع باحتشادهم ملكته الرعدة فأرسل يستعجل جيوشه ليوافوا اليه فاجتمعوا في مدة ثمانية ايام قادمين من حماة وحمص وما بين النهرين (٣٦١) وجاء كذلك ابن قرا ارسلان من حصن كيفا. ولما رأى شهرامان تأهب اصحاب صلاح الدين للقتال وضعف الذين معه قال لصاحبي الموصل وماردین: لقد اقبل الشتاء وألست ارى فائدة من الحرب فالأحرى ان يعود كل منا الى بلده ثم نجتمع في الربيع ثانية. هكذا تفرقوا وتشتتوا دون جدوى. ثم ارسل صلاح الدين الى الخليفة يخبره بما صنع المواصلة وانهم هم الذين يتحرشون به وحصل منه الأمر لينازل آمد.

وفي محرم ٥٧٩ للمرب وايار ١٤٩١ لليونان (١١٨٣ م) احتل صلاح الدين آمد بعد حصار شديد . وكان صاحبها ابن نيسان يقاتل الاعداء قتالاً عنيفاً . غير ان الامديين اغضوا عنه وسبب ذلك انه لما ازدحم اصحاب صلاح الدين ما بين سورتي المدينة انتفض عليهم الاهالي وفضطوهم هناك وقتلوهم وكتب صلاح الدين على الرايات عبارة تهديد قاس واقسام منغلظة بانه لن يجيد عن المدينة ما لم يحتأها ويحرقهم جميعاً ان رفضوا تسليمها . فخافوا واراحت عزائمهم وارتعب ابن نيسان وطلب الامان له ولاهله وامواله . فامهله صلاح الدين ثلاثة ايام ريثما ينقل ما شا . ثم دخل المدينة . وقد نقل ابن نيسان ما نقل من ذهب وفضة وحجار كريمة وآنية . قيل انه لم يتيسر له ان ينقل عشرين امواله في تلك الايام الثلاثة اذ كانت كثيرة جداً . وبعد ما احتل صلاح الدين المدينة ولى عليها نور الدين بن قرا ارسلان مع كل ما يبا . فقيل له : انك انما وعدته بالمدينة لا بكامل ما يبا . فابا ينفي على ثلاثة آلاف دينار . فقال صلاح الدين (٣٦٢) : لا يحمل بنا ان نعطي صديقنا مدينة فارغة . قيل انهم عثروا في احد ابراجها على مائة الف شمة وكان في مكتبتها الف الف واربعون الف مجلد اعطاها صلاح الدين للقاضي الفاضل كاتبه . وايد ابن قرا ارسلان في ولايته وحلف له وعبر الفرات الى عيتاب واطاعه صاحبها نصير الدين بن كرتكين ثم غادرها الى حلب وحاصرها . وكان عماد الدين صاحبها قد تسلمها فارغة حتى انه لم يبق له ما يقرم بحاجات جنوده ولم يحصل على شي . من الخليتين ومن اهالي ضواحيها . ولما قال لاحد الزعماء ان ليس عندي ما اؤديه لك قال له الزعيم : بيع حلي امرأتك واعط المحاربين ان شئت ان تكون ملكاً . وأفضى به العوز الى حد ان الاهالي كتبوا يقدمون الطعام يوماً فيوماً له ولاهل بيته . ذلك ما حل الزعماء والجنود على ترك الحرب بخلاف الاهالي فقتلوا يواصلونها .

ولما تمذر على صلاح الدين احتلال حلب عنوة شاور زعماءها سراً واستلهم بالمطام . فاشادوا على عماد الدين بالتسليم والاكتفاء . بما كن اخرى ذلك لنلا يأخذها غيره ويبقى هو دون شي . ثم قالوا له : هل تظن ان العامة تدافع عنك وتكفني برزقها . وقد نفدت الاقوات ولم يبق عندك ما تعطيمهم ؟ تبصر

اذن في ما يجب ان تصنعه . ارتضى عماد الدين بما اشاروا وارسل الى صلاح الدين يطلب سنجار ونصيبين والخابور والرقّة بدلاً من حلب . فلبى طلبه وكتبها له وارسل اليه العكّ موقفاً بخطّ يده وحلف له انه يتخلّى له عنها بأجمعها . ولما سمع (٣١٣) الحلبيون ذلك شملهم الكمد واحتشدوا عند القلعة وجعلوا يشتمونه . وعلّقوا امامه طساً ورداء وصاحوا قائلين : تبا لك من خنثى ! لا يصلح لك الا غسل الاواني . وكان ينظر اليهم من الشرفة ويسمع شتمهم . ليلة ١٨ صفر من تلك السنة انحدر عماد الدين من القلعة وخروج الى خيصة أعدت له وتسلّحها صلاح الدين مع المدينة . وتوجه عماد الدين الى سنجار وتولّادها مع البلاد المذكورة . على ان صلاح الدين سرّ باحتلاله حلب اكثر من سائر المدن التي احتلّها . قيل انه لما كان ماراً بدرجات القلعة كرّر ما ورد في القرآن نقلاً عما كتبه دانيال النبي فقال : « ان الذي يتسلّط على مُلك البشر ويجعل له من يشاء » (دانيال ٤ : ٣٩) . ثم التفت وقال لمن معه من الرعايا : الآن عرفت ان الملك استتب لي . صدّقوني اني لم اجد نور الدين المتوفى الا على حلب ولم اشته سواها . وبعدهما احتلّها صلاح الدين ألغى جبايلت جنة ونقص الضرائب ووزع اموالاً طائلة باغ مجموعها ثمانمائة وخمسين ألف دينار . وأصيب في هذه الممعة تاج الملوك توري اخو صلاح الدين الصنبر ووداك اياماً ومات . ولما عاده اخوه قال له : ينبغي ان تفرح وتبهج لاننا ملكنا حلب وهي لك منذ الآن . فقال له تاج الملوك : ان السيادة اثنا تفيد الاحياء لا المدنفين مثلي . كن على ثقة بأنك ملكها بأثان غالبية اذ ضيّت اخاك بامتلاكك اياها . وكان تاج الملوك هذا منبغذاً في الحروب . فبكى صلاح الدين وبكى معه الحاضرون بكاء مرّاً .

وحاول صاحب حارم يومئذ ان يبيع بلدته من الفرنج وشعر الحراس بما انتوى . ولما خرج يوماً الى التّزه وعاد اغلقوا الابواب في وجهه (٣٦٩) وكتبوا الى صلاح الدين ليأتي ويحتل المدينة . فأرسل لذلك ابن اخيه وابن عنه لكنهم بعثوا يطلبون حضوره بذاته فلبى طلبهم وانطلق وملك البلد واجزل لهم العطاء . وأخرجهم من القلعة ولم يتعدّ على صاحبها لان الرعايا دافعوا عنه وقالوا ان الحراس خدعوه .

واقام صلاح الدين ابنه الملك الظاهر في قلعة حلب وعاد الى دمشق ومنها سار في جيوشه الى قلعة الكرك وحاصرها حصاراً شديداً . فاحتشد الفرنج واءتزموا المحجور فشمز صلاح الدين وانتقل الى دمشق . واقبل اليه اخوه الملك العادل من مصر في ذهب كثير فولاه حلب وملحقاتها من رعبان وسواحل الفرات حتى حماة . ولما دخل العادل قلعة حلب غادرها الظاهر بن صلاح الدين بعد ما اقام بها ستة أشهر وعاد الى ابيه .

وفي السنة ٥٨٠ للمرب (١١٨٤ م) أعد صلاح الدين المدة ليؤخف الى الكرك وأرسل فاستدعى نور الدين من حصن كيفا والعادل اخاه من حلب ووقعي الدين من مصر واحتشدوا جميعاً هناك . واحتشد الفرنج كذلك فتخوف صلاح الدين وأمر ان يحرقوا المنجنيقات ويتركوا الكرك فانتقلوا الى بلد السامرة وغزوه .

اما البرنس أرنالط صاحب الكرك فقد حصنها تحصيناً متيناً . وسار البرنس صاحب انطاكية الى حلب في مائتي فارس وغزا ضواحيها وقتل بالكثيرين من العرب . وهم مجتمعون في جنز الحديدي ووثب الى الكنا . بالجبل وهم اربعمائة راجل وعشرون فارساً وأجيز عليهم كافة .

وفي تلك السنة مات قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين البي تيمورطاش ابن ايلغازي بن (٣٦٥) أرتق صاحب مازدين وخلفه حسام الدين يلقب ارسلان وهو بعد قتي . واقام طاهر الدين شهرامان خاؤه وصياً له اسمه نظام الدين . واقترن نظام الدين بام الفتي وساس الملكة خيرة سياسته . ثم مات الفتي وله اخ اصغر منه اسمه قطب الدين باسم ابيه فجعله نظام الدين مكان اخيه . واجتهدت السياسة بيده ويد عبده اواز . ولما غا الفتي وعرف انه متروك بالاسم لا بالفعل عاد يوماً نظام الدين وهو مريض ولما خرج من عنده سار معه اواز الى الباب كرماتاً له . فوصلا الى مكان ضيق واستل قطب الدين السكين وضرب لواز وقتل به وانتقل الى نظام الدين وهو مضطجع في فراشه فأجهز عليه كذلك . واخذ الرأسين وألقاهما الى الزعماء من القلعة . وما ان شاهدهما

حتى ملكهم الرعب واذعنوا له بالطاعة واستغفرت وصاية نظام الدين عشرين سنة وتم قتله في السنة ٦٠١ للمرب (١٢٠٠ م) .

وفي السنة ٥٨١ للمرب (١١٨٥ م) سار صلاح الدين الى حلب ثم عبر الفرات الى الرها وانتزعا من مظفر الدين بن زين الدين صاحبها . واستأنف السير الى راس العين ودارا وجا . الى زيارته عماد الدين بن قرا ارسلان بدلا من اخيه نور الدين الذي كان مريضا . ومن هناك سار صلاح الدين الى مدينة بلد ثم الى الموصل واقبل اليه صاحب اربيل زين الدين بن علي كوجاك . وكان مظفر الدين صاحب حران مع صلاح الدين . ولما ضايق صلاح الدين الموصل خرجت اليه ام غز الدين صاحبها وهي ابنة ارتق وخرجت معها بنت نور الدين ابن زنكي وتوسلت اليه ان يترك المدينة لعم الدين مذكرا (٦٦ -) الايام القديمة وعرف آل زنكي وبكدا امامه وتشتبا بأذياله فلم يكثرث لها . فتركته وانقلبنا خائبين . فهاج المواصلة عند ذاك وماجوا كبارا وصغارا وهم يمربون عن ولايتهم آل زنكي وتضافقوا على احتلال الأسوار وعلى الجهاد في القتال . وجعلوا يستحقرون صلاح الدين بكونه غامطا لمروء مراليه . فلم يزل صلاح الدين ألا ان يترك الموصل ويتوجه الى خلاط وقد بلغه ان صاحبها شاه ارمن مات وناب منابه بكسر عبده وأحسن الى الخلاطين واحبهم واحبوه جبا جبا . ولما سمع ان البهلوان بن ايلدكر سلطان العجم قادم ارسل الى صلاح الدين يستجده فيسله المدينة . فصار اليه ورآه متحفا فلم يخرج الى لقائه . ثم وصل شمس الدين البهلوان من العجم وحل في الجانب الآخر من المدينة واستعد ليحاربا . لكن الرعاء قاتوا له : اذا ضايقت بكسر ومال الى صلاح الدين فلن ييسر لك ان تقاتل او تنجح . بناء عليه ارسل البهلوان الى بكسر وطيب قلبه وزف اليه ابنة من ذويه وتركه وانصرف .

ولما رأى صلاح الدين ان الخلاطين والعجم قد اتفقوا انقلب الى ميافرقين وكان صاحبها قطب الدين ملك ماردن قد مات وتولاهما ابنة الفتى كما ذكرنا . فحاصر صلاح الدين المدينة وكان قائدها اسد الدين بريقس وكانت خاتون امرأة قطب الدين صاحب ماردن كذلك هناك مع بناتها فاخذت تحبس المحاربين وتشجعهم . ولما طالت الحرب (٦٧ -) ارسل صلاح الدين ياتى المرأة ويعدها

بأخذ احدى بناتها زوجة لابنه. فارتضت وسأته أن يتخطى لها عن قلعة الهناخ
ثم سأته المدينة وارتحلت الى تلك القلعة .

واقبل كذلك قطب الدين سقمان بن نورالدين بن قرا ارسلان صاحب آمد
الى زيارة صلاح الدين فرحب به أجل ترحيب ثم عاد الى مدينته . وبعد هذا
غادر صلاح الدين ميافرقين الى ساحل نهر قرمان واتى كفر زمار على
ساحل دجلة .

اما المواصله فتضايقوا جداً وارسلوا تكراراً المرأتين المذكورتين الى صلاح
الدين يتوسلون اليه في الصلح والمودعة . وبوسط بين الفريقين عماد الدين
صاحب سنجار . ونحلى عز الدين صاحب الموصل لصلاح الدين عن شهرزور
وعن الزابيين وبيت وازين وسائر الشرق وارتضى ان يحطب له وان تضرب
الدراهم والدنانير باسمه . وبناءً على ذلك عقد الصلح ما بينهما . وانقلب صلاح
الدين الى حران ومرض هناك وادنف ثم تعافى وكان معه ابن عمه ناصر الدين
ابن اسد الدين شيركوه فغلب على ظنه ان صلاح الدين يوت لا محالة فتركه
وعاد الى حمص مدينته واجتمع بالشبان واستحلفهم فقرروا بانه متى مات صلاح
الدين يتفقون على ان يخلعه هو في الملك . وقد شاء الله تعالى فتعافى صلاح الدين
ومات ناصر الدين وتوجه صلاح الدين الى حمص واحتوى على كل ما كان له
وربى مكانه ابنه الفتي الملك المجاهد . قيل انه بعد سنة زار هذا الفتي صلاح
الدين فسأله : الى اين وصلت من القرآن ؟ فقال الفتي الى الآية : ان آسكني
اموال اليتامى ائنا ياكون نارا في بطنهم . فدعش صلاح الدين واتفى على ذلك
وقال : ان كان هذا الفتي قد فهم ما قال لزم ان يخافه .

وفي السنة ١٤٩٦ للبرنان (١١٨٥ م) تحفز (٣٠٨) اندرونيقس بالطاغية

ليفتك باسحق الذي بقي من اسرة منوبيل الملكية فتحضن اسحق في داره
وارسل اندرونيقس قائد السكرك في طلبه . فا كان من اسحق الا ان استل
السيف وأجهز عليه ثم امتطى حصانه وخرج يريد الكنيسة الكبرى والسيف
بيده مخفياً بالدم وهو يصرخ ويولول . فتبعه ربات الاهالي وانضم اليهم جمهور
من الرعاة المناوئين للطاغية . واخلوا الكنيسة واضطروا البطريك فتوج اسحق
ملكاً . وما ان سمع اندرونيقس حتى فر من البلاط يريد الخزينة مجزاً . فادركه

ورددوه الى العاصمة واخذوا يقطعونه بالسكاكين وينهشونه وينكلون به
أشد التكيل ثم احرقوه على مرأى من الجماهير.

وفي هذه السنة اشتد داء الجذام على بغداديين ملك اورشليم فاستودع
الملكة لابن اخته الصغير بغداديين (الخامس) وما عم ان توفاه الله تعالى.
وفي السنة ٥٨٢ للمرب (١١٨٦ م) تعافى صلاح الدين وغادر حران الى
حلب وحص واستيقن ان ناصر الدين ابن اخيه شمس الدولة قد مات فانتزع
قلعة حص من ابنه. واتي فيها مواد وافرة ثم سار الى دمشق. واتقلب فاخذ
حلب من العادل اخيه واعطاها لابنه الملك الطاهر واعطى دمشق لابنه الثاني
الملك الافضل. واعطى مصر لابنه الملك العزيز وبثه اليها مع العادل اخيه.
وكان تقي الدين ابن اخيه هناك فلما سمع ان مصر انتزعت من يده ارتأب
واستعد للذهاب الى افريقية. غير ان صلاح الدين ارسل يلاطفه واستدعاه اليه
وطيب خاطره وذكر له انه انما يرغب اقامته لديه طمأ بقرته. ودلاه حمة
والمرمة وسلامية ومنبج برقعة نجم واطاف اليها ميافرقين (٣١٩). وارسل
فاستحضر ابنه الملك المنصور من مصر مع جيوشه. غير ان مملوكه بوذباه أبي
التدوم اليه وانطلق الى المغرب ومالك افريقية.

وفي السنة ١٤٩٧ لليونان (١١٨٦ م) كان اجتماع الكواكب السيارة
السة في برج الميزان سوى زحل فقد كان على شكلين في ١٤ ايلول و٢٩
جمادى الآخرة. وسبق المنجسون فقضوا انه سيحدث طوفان عرسي في ربح
شديدة ويهلك البشر قاطبة. ويكون مثله مثل طوفان نوح اذ اجتمعت
الكواكب في برج الاسماك واغرقت المياه الارض كلها؛ وقد صدق قلعج
ارسلان سلطان قونية ذلك الزعم اكثر من كل الناس وأنفق مبالغ طائلة في
حفر سرايب في قلب الارض وابتناء بيوت محكمة عميقة. غير ان الله سبحانه
وتعالى كذب زعم المنجسين. ولما كان ذلك اليوم المحدود وقد اعتصم الكثيرون
بالسرايب والمنازل لاج الجو صافياً نقياً والهدوء سائداً اكثر من سائر الايام
ولم يحدث الا كسوف اعتيادي في الشمس. وسقط المنجسون من عيون الملوك
والعامة بسبب كذب رايم. وان منجماً من مشاهيرهم كان يقول: ان المنجسين
غير صادقين في زعمهم. فاستدعاه السلطان واستخبره فأكد له قوله بتوقيعه

وامضائه مصرحاً بأنه ان يحدث ما يدعيه المنجبون ولن يُعاب احدٌ بأذى .
ولما تحقّق كلامه استفسره السلطان وقال له : كيف عرفت ذلك ؟ فقال اني لم
أقل ما قلته استناداً الى علم التنجيم غير اني عرفت انه اذا حدث الطوفان فلن
أبقى انا ولا يبقى من يلومني . واذا لم يحدث اكون قد ربحت الجائزة وقد
ربحها . فضحك السلطان وجاد عليه وأطلقه .

وفي تلك النضون عقد البرنس صاحب انطاكية الصلح مع صلاح الدين
وقبض بالحيلة على روفين صاحب قيليقية واورثه بلسل حديدية واعتقله .
وحشد الجنود وزحف الى بلاده فتهاضه لاون مناهضة البطل وردّه الى بلاده
خازياً . وبعد هذا (٣٧٠) دفع له الارمن ثلاثين الف دينار مع المضيعة وادنة
فأطلق روفين . غير ان روفين انقلب فاسترجع المدينتين فسخط البرنس وجعل
يعيث وينزو بلاد قيليقية جميعها .

وفي تلك الاثنا . قتل البهلوان سلطان العجم وحدثت معامع طاحنة بسبب
ذلك . وتمرحش الاكراد والتركمان كذلك في اطراف نصيبين . ذلك ان تركماناً
ذهب فتزوج بتركمانية من غير عشيرته . ولما مر اهلالي العرس بحصن من حصون
الاكراذ ببلد زوزان وقف الاكراد في طريقهم وطلبوا منهم ولية العرس .
واختلف التركمان في ذلك فشذ عليهم الاكراد وخطفوا العروس وعادوا الى
حصنهم . ومن ثم حصل قتال شديد وقطعت الطرق ونُبت البضائع وقُتل من
كلتا الجهتين زهاء عشرة الاف نسمة . ثم احتشد ثلاثون الف كردي او اكثر
وتأزلوا التركمان بجانب الحايور فانكسر الاكراد وسقط قتلاهم منذ شواطئ
الحايور حتى نصيبين . ثم تبارز الفريقان ثانية بغواحي الموصل وانكسر الاكراد
كذلك . واغار التركمان على الاكراد غير مرة وشذوا عليهم حتى هزمهم الى
قيليقية وانحنوا في الرجال والنساء والفتيان . هكذا أفنى التركمان الاكراد
من سورية وما بين النهرين وتوغّلوا في ارمينية وقبضوا على ستة وعشرين الفا
من الارمن واستاقوهم عبيداً وابعادهم . واحرقوا دير كرايد الكبير وفتكوا
يرهبانه . وقتلوا في تلدم مائة وسبعين رجلاً سرياناً . واجبروا على مائتي شاب
سرياني من حملة السلاح في قرية أسرون ببلد قلودية التابعة للمطية . واحدثوا
معامع حجة في قبدوقية وملطية بأسرها . والتحم القتال كذلك بين العرب

والاسميليون وبطش بعضهم ببعض بطشاً ذريعاً .
وفي تلك السنة حصل نزاع بين الفرنج . ذلك ان صاحب طبرية قبل وفاته سلم ابنه الصغير الى قنص (٣٧١) طرابلس لينض بتربيته . وما عثم ان مات الصبي وافضى الامر الى امه . فكلفت برجل اسمه جي لم يكن من اسرة ملكية واقترنت به وتزوجته ملكاً . ومن ثم سخط قنص طرابلس وقصد صلاح الدين وانضم اليه وتشم يحفر الحفائر للملكة طبرية ولسائر النصارى . وفي السنة ٥٨٣ للعرب (١١١٢ م) رأى صلاح الدين ان اليرس ارباط زكت اقسامه ونهب قافلة تجار عرب وحشد الجنود ونهباً للعرب فسار الى الكرك في جنوده واكتسح اشجارها واتلف ما حولها من القرى . وغادرها الى شوبك وفعل مثل ذلك . وزحف ابنه الملك الافضل الى طبرية وغزا وبرز الفرنج وفادشوا العرب وكاد يُقضى على العرب قضاء مبرماً لو لم يساعدهم الحلبيون . وبعد هذا عاد الفرنج الى المدينة وساء الافضل ومن معه الى صلاح الدين . ثم اجتمع ملوك الفرنج وزعمائهم وتشاوروا في منازلة الرب . لكن القنص صاحب طرابلس قال لهم : اعلوا يا اخوتي ان في مبارزة صلاح الدين خطراً جسيماً : فقد كان فيما سبق رجلاً كجائر الرجال واصبح اليوم مستولياً على مصر وفلسطين حتى بلاد المشرق . فارتى من المفيد ان نعقد معه الصلح ويطلب كل في بلاده .

غير ان جي الملك الحديث الذي اقترن بملكة طبرية اعتر بنفسه وقال : لا بد من المارزة . فقال له القنص : سترى عاقبة غايتك . اما صلاح الدين فاجتمع كذلك بزعمائه وشاورهم (٣٧٢) فقالوا : لا يوافق الان ان يبارز الفرنج وهم في فورة اجتماعهم . فالاجدر ان نضمهم شيئاً فشيئاً حتى اذا اخذوا يتشتتون استسلمنا مناوشتهم والبطش بهم . غير ان صلاح الدين لم يوافقهم بل قال لهم : متى يا ترى يجتمع لندي مثل هذا الحشد القفير ؟ فالاجدر ان تشجعوا وتتشددوا وتبارزوه . وما يريد الله تعالى يفعله . قال هذا

(١) هي ايزابيل اخت بندوين الرابع ملك اورشليم والدة بندوين الخامس . قدماً ترمكت اقترنت بي دي لوسيان . ولما توفي بندوين الرابع والخامس افضت الملكة اليها واصبح زوجها غي ملكاً على اورشليم لا على طبرية فقط .

وركب واركب جنوده وزحفوا الى الاردن وحطوا رحالهم على شواطئ بحيرة طبرية . واحتشد العرب في صفورية . واقام الصفان اياماً لا يتأبش احدهما صاحبه . وبعد هذا وجه صلاح الدين قسماً من جيوشه في طريق مجهولة الى طبرية ليلاً . ولما اصبح وثبوا ودخلوا المدينة ووضعوا فيها السيف والنار . وتحصنت الملائكة^(١) في القلعة .

اما جبي زوجا فلما سمع الخبر انحلت عزيمته ولكنه تشجع وشجع الفرنج وركبوا جميعاً وانتفضوا على العرب . ولما كان المساء اقام الصفان احدهما تجاه الآخر واحيرا الليل كله ساهرين . وغلب العطش على الفرنج لان العرب كانوا محتلين ناحية الاردن وشددوا عزائمهم للمبارزة . ولما اصبحوا وشاهد العرب شجاعة الفرنج وهم يقتحمون اقتحام الدبابير ولا يتقهقرون اضطربوا كل الاضطراب وفشوا وارعدت ركبتهم . وما ان شاهدتهم صلاح الدين على تلك الصورة حتى بادر الى الوسط وادفع فيهم صيحة عظيمة واسمهم كانت مزوجة بالمثل والمرارة تارة يشجعهم وطورا يهددهم . وان شاباً بلساً اسمه مغوراس وهو يملك صلاح الدين استبسل وخرج من صفوف العرب وبلغ الى وسط الصقيين فادركه شاب فرنجي يأسل وطعنه برمح والقاه عن حصانه وانحنى فقبض على صغيرته وجره نحو صف (٣٧٣) الفرنج واحتر رأسه . ولما شاهده الفرنج تقووا واشتدوا ظلتين انه احد ابنا صلاح الدين .

اما قنص طرابلس وكان قلبه تائها غشاً ومكرًا فتخوف ان يحرز الفرنج الغلبة التامة وتعدو مشورته بالعدل عن القتال لاغية فتظاهر كن يحادل تتبع العرب والبطش بهم . ففتتحوا له الطريق ما بين صفوفهم لانهم سبقوا فمروا ان قلبه غير مستقيم مع ابنا دينه . وهكذا مر بينهم وتوجه الى طرابلس مدينته . وقد اصبح انهما هذا مدعاة كهري الى انكار الفرنج ولم يبق بينهم من يثق بصاحبه . غير انهم لم يروا بداً من المبارزة فحاضروا ما بين العرب وشلت السيوف ولم يستفيدوا شيئاً اذ قطروا الرجا . بسبب انهما القنص . وعند ذلك حمل عليهم العرب حملة شعواء وارثقوا جبي صاحب طبرية^(٢)

(١) لم تكن ايزايل ملكة اورشليم بل امرأة زيتوند قنص طرابلس .

(٢) ملك اورشليم .

والبرنس ارناط صاحب الكرن وجمهوراً من الاخوة الدواوية الاسيائية^(١) وغيرهم ولم يتمكن من الفزبة الا القليلون .

ولما خمدت الحرب جلس صلاح الدين في خيمته واجتمع عنده زعماءه وامر باحضار جي زوج الملكة صاحبة طبرية والبرنس ارناط . وابدى الاكرام لجلي واجلسه الى جانبه واجلس ارناط كذلك . وكان العطش قد اجبد جي فطلب ماء ليشرب . فامر صلاح الدين فأتوه بماء ممزوج بالثلج فشرب نصفه ودفع النصف الثاني لارناط . فقال له صلاح الدين : لا يجوز ان تسقيه دون امري . قال جي : ان الاعتقال موت فلا بُدَّ من موتين (٣٧٤) . والانكسار قتل فلا تقتله قتلين . فاعجب صلاح الدين بكلامه واعترى ان يعفو عن ارناط لكن الزعماء حرضوه على قتله وقالوا : لا يستحق هذا ان يبقى حياً لانه اقسم مراراً وحنث في بيته . وبمد هذا ارسلاهما كايهما الى خيمة اعدت لهما . وما مرت ساعة حتى بعث فاحضر ارناط وحده واستل السيف وقتل به بيده^(٢) . وكان ارناط هذا شيخاً منجداً بالحروب ذا بطش وشجاعة فائقة يباب العرب سخطوته . وبمد هذا سار صلاح الدين الى قلعة طبرية ولاطف الملكة وادغم لها وانزلها وبشها الى طرابلس مع ذويها وكل مالها واعطاها بعض عطايا . اما الرهبان الدواوية والاسيائية وكانوا غنازين عدداً فقد اعتاقهم ثم قتل بهم . وقد باع الفرسان منهم كل فارس بخمسة دنانير وقال : ن هؤلاء يفوقون الفرنج كافة في ايقاع الضرر بالعرب ويؤثرون القتل في سبيل ايمانهم فيجب الاجاز عليهم . ثم اقبل صلاح الدين الى عكة وانهزم الزعماء كافة في البحر الى صور وبقي الساكنين فطلبوا الانمان . وبمدا احتل عكة احتل كذلك حيفا ونابلس وهي السامرة وتبنين وصيدا وقيسارية ويافا وبيروت والناصرية . ويقصر اللسان عن وصف ما احتمله النصارى القاطنون في اصقاع العرب يومئذ من الاستبزاز والاذدراء . اما صاحب جبيل وكان معتقلاً فقد سلفهم المدينة ونجا .

وسار صلاح الدين الى عسقلان وهي حافة برجال الحرب وحاصرها حصاراً

(١) هم رهبان جنود محافظون اصقاع المسيحيين . واسمهم فرير اعني اخوة ويقول لهم دواوية وهكليون واسيائيون اعني مضيغين وقد صنعوا خيراً عظيماً بضيافتهم .

(٢) قد قُتل ارناط لانه أبى ان يجاوز بالاسلام .

شديداً ولم يقرّ على أخذها فاستدعى صاحب طبرية (مالك اورشليم) وكان معتقلاً عنده وقال له : ان سلمتني اسقلان اطلقت سبيلك . فارسل واستدعى اليه حاكمها وامره ان يسأها (٣٧٥) فأبى . فقال مالك للرب الذين يحرسونه اوثقوه واوثقوا من معه وبعد هذا ارسل الى اهالي المدينة ليلبسوها وينجوا . فاختضعوا له وسأوها .

وعزل اهالي صور كذلك على التسليم غير ان القنص (كيزآد) شخص اليها وتولى حراستها جيداً .

وزحف صلاح الدين من هناك الى اورشليم وحاصرها ونصب منجنيقات ضخمة على سورها في الناحية الشمالية لائسائها وموافقتها لاقامة المحاربين وظل ثلاثة ايام كذلك . ثم اشتد الفرنج وهم سترن الفأ من فرسان ورجالاة وخرجوا الى قتال العرب وقتلوا بكثير منهم في جلتههم عز الدين عيسى صاحب قلعة جبر وغيره من المشاهير . واذا ذلك اخذ العرب يستعملون قذف السهام ليبلوا الواقفين في السور حتى تشبث به الحلبيون القسلة واقتلوا حلالا الحجار ونقبوا نقباً أسندوها بالاخشاب حتى اذا لعبت بها النيران يسقط السور .

ولما قنط الفرنج وآيسوا ارسلوا اثنين من العقلاء الى صلاح الدين يطلبون الامان . لكنه ابى وقال لن افتح المدينة الا بالسيف وسأفعل بكم كما فعلتكم انتم بالعرب حين ملكتموها اذ قتلتم وسيتم . فقال له احد ذينك الزعيمين ان لي كلمة اخرى اقولها لك ان وعدتي بانك لن تحتق . قال له صلاح الدين : لست احتق قل ما بدا لك . فقال : لو لم نعرف فطنتك وانك لا تقدر ان تحالف شريعة من سبقك من الملوك الاقدمين اذا انكسر اعداؤهم والقوا سلاحهم وطلبوا الامان لما اقبلنا اليك . والآن فقد اتينا (٣٧٦) ولم يبق لنا امل في كرمك فاعلم اننا عائدان الى المدينة لنبلغ رجالنا الابطال المجاهدين . وسنفتك اول بدء بالعرب الابرى الذين عندنا . ثم نحرق مسجدكم الكبير ثم الكنائس وسائر الابنية ثم الاموال والامتنعة ثم نذبح بيدنا نساءنا وابنائنا وبناتنا ولن ندعكم تكتلون فيهم شهوتكم . وبعد هذا كله فالواحد منا لن يلبم ذاته للقتل الا بعد ان يقتل واحداً او اثنين منكم .

أدهش صلاح الدين هذا الخطاب وقال للزعيمين ان يبقيا في احدى الحيام

ربما يشاور زعماءه . فقالوا له : ان كل ما قاله هذان صحيح وان الفرنج يصنعون اكثر من ذلك . فالاجدر ان نصلحها . فاستدعى صلاح الدين ذينك الزعيمين الفرنجيين وقال لهما : اني قابِلُ بما طلبتما غير انه لا يمكن ان يخرج الاهالي كلهم مجاناً وأسراني يطلبون ذهاباً لانهم تمبوا وخسروا في الحرب خائر - وافرقة - واستقر الرأي ان يدفع كل رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكل ابن وبنو دينارين ويخرج الجميع في كل ما يمكنهم حمله . فوافق الفرنج على ذلك . ووزنوا ثلاثين الف دينار عن الفقراء والمساكين وادى الاغنياء عنهم وعن غيرهم من الفقراء وخرجوا جميعاً بالامان . وبقي خمسة آلاف ممن لم يمكنهم ان يدفعوا شيئاً فاستاقهم العرب أسرى . وقد اركبى بعض الحراس العرب من كثير من المسيحيين ديناراً ديناراً او اكثر وسرحوهم . أما مظفر الدين بن زين الدين فقد اطلق نحو الف شخص من السريان والارمن مجاناً وهو يقول ان هولاء هم رهاويون من ابنا رعي . ونهج نهجه ابن شهاب الدين صاحب البيرة فاطلق الكثيرين من ابنا بلده .

وكان في اورشليم يوشع ملكة يونانية متوسعة بشوب الرهبانية منقطعة في احد الاديان فارسلت الى صلاح الدين تلتس منه ان لا يتعدى عليها احد . فامر ان تخرج هي (٣٧٧) والشهامة والشهات والحدام وتنقل معها كل اموالها . وارسل معها بعض الفرسان اوصلوها الى حدود الفرنج . وصنع مثل ذلك لسائر الملكات الفرنجيات اللواتي كن في اورشليم . ونقل البطريك جميع امتعة كنيسة القيامة وسائر الكنائس وقناديل الذهب والفضة وارتمل . وباع الاهالي ما لم يتيسر لهم نقله . وبالجملة فقد سلموا المدينة فارغة من الذخيرة . على ان الهاء الكاتب قال لصلاح الدين : علام ينقل هولاء كل هذه الاموال وان لم تقرر لهم الا الامان ؟ فقال له : صدقت ولكن الفرنج لا يفهمون ذلك واذا منعناهم عن اخذ اموالهم اذاعوا عنا اننا اقسمنا وحشتنا باقامتنا وألقوا بنا ذكرى سيئة . هكذا احتل صلاح الدين اورشليم يوم الجمعة ٢٧ رجب عام ٥٨٣ لله للعرب (١١٨٧ م) و ١٢ تشرين الاول ١١٩٨ لليونان . وتم ذلك بعد مضي ٢٨ يوماً من اجتماع الكواكب السيارة الستة .

ولم يملك المسيحيون اورشليم بعد هذا التاريخ . غير ان صلاح الدين اقام

اربعة رهبان من الفرنج في كنيسة القيامة ليخدموا القبر المقدس . وبعد زمن قليل تولى بطريرك اليونان ادارة تلك الكنيسة .

ولما فرغ صلاح الدين من امر اورشليم سار الى صور وهي في قلب البحر وابنى ابراجاً متينة وافرغ كل قوته في محاربتها وهرم يمرض عاكره ويقول لهم : لم يبق للفرنج في ساحل البحر مكان يقيمون فيه الا صور فاذا انتزعناها منهم كفوا عن الزحف ونجونا منهم . وبمثل هذه العبارات دفعهم الى القتال حتى النهاية . غير ان المركيز الذي اقبل من رومية حصن المدينة بالحنادق وبرجال اشداً . ملاحين وجعلوا يخرجون ويفتكون بالعرب ويعودون (٣٧٨) وعند ذلك ارسل صلاح الدين الى الاسكندرية واستقدم الف سفينة ضخمة ارسى تجاه المرفأ . وخرج ايلة ملاحو الفرنج في سفن محكمة وحطروا اغلبها واعتقلوا ملاحين شهيرين من بلاد المغرب والتقى البقية انفسهم في البحر وهلكوا وانجزم بعضهم في سفنهم الى بيروت فادركهم الفرنج واعتقلوا اغلبهم وغرق الباقون . ولما شاهد صلاح الدين تلك الاحوال وشبالة الفرنج في البحر قطع الامل هو واصحابه واحرقوا ما ابثوا من الابراج والمنجنيقات والبقية الباقية من السفن واقلعوا من صور وتوجهوا الى عكة . ثم امر صلاح الدين جنوده ان يذهب كل منهم الى وطنه ويستريح في بيته .

وفي تلك الاثناء وقع خلاف بين الخليفة الناصر وبين صلاح الدين لان هذا اغض عن ارسال جزية سرورية اليه . ولم يرسل اليه كذلك شيئاً مما كان يجنيه من مصر . وطالما صرح صلاح الدين في نشوته بانه مستعبد ان يلقي الخطبة للخليفة ويجدها للفاطيين بصر . وقد امتعض الخليفة اي امتعاض عندما نقل اليه رجل حقيير بنفادي كان سابقاً في خدمة صلاح الدين البشري باحتلاله اورشليم .

وفي تلك السنة حشد رجل تركاني من الرعاة يقال له رستم خمسة آلاف فارس وجهوراً غفيراً من الرجال وسار الى قيليقية ليسي وينزو . وما ان شعر لاون صاحبها حتى سدا الثغور في ناحية مرعش واجهز على اولئك التركان . ثم احتشد خمسة آلاف رجل منهم في اطراف حلب (٣٧٩) ليفزوها فبرز اليهم البرنس بوهيند وسحقهم جميعاً .

وفي السنة ٥٨١ للمرب (١١٨٨ م) زحف صلاح الدين بذاته الى حصن
الأكراد وحاصره يوماً واحداً فامتنع عليه . فانقلب الى انطرطس وقبل ان
يتنهبوا من نصب الحيام كلها احتلّ الحلبيون اسوار المدينة ونحّص الفرنج في
برجين من ابراجها واخيراً سَلَدُوا . فقرّض صلاح الدين سورها وقلعتها وكنيستها
الشهيرة المعروفة بكنيسة مريم والدة الله وسائر ابنيتها وانطلق الى قلعة المرقب
فلم يَرِ احداً من السكان فيها . وانتهى الى جبلة فسله اياها من فيها من
المرب . ثم زحف الى اللاذقية ونازلها بشدة وحفر الحلبيون خندقاً تحت الارض
طوله ستون ذراعاً وعرضه اربع اذرع . فخاف الفرنج وطلبوا الامان . فرخص
لهم صلاح الدين ان يخرجوا في اولادهم ونسائهم واموالهم سوى البهاثم والقح
وآلات الحرب . واستعمل عليها ابن اخيه تقي الدين صاحب حماة

واقبل في تلك الايام جيوش من الفرنج في سفن كثيرة من حقلية ليسانداوا
المسيحيين . وانطلق قائدهم ليحادث صلاح الدين وقال له : لقد استوليت
على كل ما كان للفرنج في سواحل البحر ولم تترك لهم سوى القليل الحقير .
فينبغي ان تكف عن قتالهم لئلا يتدفقوا قادمين من البحر ويسيروا لك عناء
جسداً . فلاجدر بك ان تحسن ماملة جيرانك هؤلاء . لانهم بثابة حصن حصين
بينك وبين الاهالي . فقال صلاح الدين : ان شريتنا تضطرب ان نترز ديننا .
والرب يصنع ما يشاء . فعاد ذلك القائد الى بلده ثم زحف صلاح الدين الى
صبيون وهي على صخر (٣٨٠) . بين واديين عميقين وحاصرها واحتلها بالامان
واستعمل عليها ناصر الدين منقوراس بن كرككين مملوك مجاهد الدين بن
يوزان . واحتل كذلك شوغر بكاس وزحف الى درباسغ ونازلها واحتلها .
وانتهى الى بنراس وهي خالية من الجيش الكافي وانتزعها من الابخرة
الدواوية . واصبحت تلك البلاد جميعاً للمرب . فضاف الانطاكيون خروفاً
شديداً ولاسيا لان الطرق سُدّت فجهاهم ونقصهم الزاد . بناء عليه ارسل
البرنس الى صلاح الدين يتذلل ويطلب الامان فلبى طلبه لمدة ثمانية اشهر وتركه
وانصرف الى حلب ثم الى دمشق واستراح هنيهة . ثم زحف الى صفد
وحاصرها حصاراً شديداً حتى انتزعها من اصحابها وانتزع معها بلدة كوكبة
بعد ما ضايقها جداً .

وفي هذه السنة مات الموفق اسعد الطيب الدمشقي المشهور بابن المطران الذي هجر النصارىة وأسلم حباً للدنيا الزائلة . واقتنى أموالاً وافرة وزف إليه صلاح الدين إحدى جواريه وما عثم أن مات واضحل ذكره . على أثر موت صلاح الدين شوهدت امرأته مع فتى عزيز عليه يطوفان بيوت الضباط ويستعطيان .

وفي السنة ٥٨٥ للهرب (١١٨٩ م) خرج يوهيند البرنس من انطاكية وغزا بلد حارم ووصل الى شيوخ وقتك بالعرب والمسيحيين معاً . اما ارناط صاحب صيدا وكان على اثر انتزاعها من يده قد سار الى شقيف ارنون برخصة من صلاح الدين فقد شخص اليه واستسلمه ثلاثة اشهر ليترحل اهله عن صور ويقيم في مكان يكفيه ببلد دمشق ثم يسلمه الشقيف المذكور . وقد أذن له في ذلك ثم أحس أنه يخادعه ويواصل حفر الخندق وبناء السور . ومن ثم خرج صلاح الدين يوماً كمادته (٣٨١) واستأسر ارناط ووجهه الى دمشق ولم يطلقه الا بعد ما سلمه الشقيف .

وفي سنة ١٥٠٠ لليونان (١١٨٩ م) حدث نزاع بين السلطان قلعج ارسلان وبين ابنه الكبير المقيم في سبطية . وقد قُتل نحو اربعة آلاف من الاتراك الذين مع الولد . وبعد هذا اضطلع على يد الامير بيرشاه صهر السلطان . ثم ان السلطان رحل عنه اختيار الدين الحسن الامير حاجبه لانه كان السبب في القاء الفتنة بينه وبين اولاده . وعند ذلك حشد اختيار الدين زهاء مائتي فارس من اولاده وانساب واقاربه وقصد مرج كنيوك فوجه ابن السلطان بعض التركان حملوا عليه وقتلوا به وبينه وبين منه . ثم قطعوه ارباً ورباً وعلقوه في رؤوس الرماح وطافوا به في سبطية يوم عيد الصليب .

وفي تلك السنة تولى ملطية ممر الدين قيصر شاه ابن السلطان قلعج ارسلان . وفيها كذلك اقبل الى صور جماعه مختلفه من الفرنج يفوق عددهم حدة الكثرة وزحفوا من هناك الى عكة . فسع صلاح الدين ودب الرعب في قلبه وارسل فاستدعى جميع جيوشه وزحف وحط رحاله بالقرب من الفرنج . وشاهدتهم يزدادون يوماً فيوماً وبأتيم القوات من البحر فعار في امره واجتمع بزعمائه وشاورهم فقررروا ان يسارعوا في المبارزة قبل ان يزداد عدد الفرنج

أكثر فاكث . وتأنهوا ليلة الجمعة أول رجب . ولما كان الصباح التحم القتال واستغرق النهار كله حتى غروب الشمس ورسخ الجانبان رسوخاً تاماً وبات الجميع ليلتهم على ظهور خيلهم . واشتعلت نيران المعركة يوم السبت كذلك حتى المساء . ولما كان الفرنج يواصلون القتال وقد أخذوا جهة عكة الكهانة حيث لم يكن لهم خيام انتم صلاح الدين الفرصة ودخلها (٣٨٢) في كثير من الرجال والمؤمن والذخائر وأخرج منها الضعفاء . ثم خرج هو كذلك وأمر الداخلين ان لا يكفروا بمحاربة السور فقط بل يقاتلوا الفرنج على المدى لهم يصفون اذا شاهدوا الداخلين والخارجين يشدون عليهم . أما الفرنج فلكثرتهم لم يدعوا العرب يخرجون جيوشهم بل واصلوا غاراتهم . ولولا ذلك لاحتلوا المدينة سريعاً .

ثم ركب الفرنج يوم الاثنين أحصاتهم ودنوا من خيام العرب دون ان يدعوا احداً من رجالهم يرافقهم . ووضعوا السيف في الكثيرين من العرب ورجعوا . فتبهم العرب الى قل المصلوبين حيث كانوا متحصنين . ولما شاهد صلاح الدين قوتهم في ذلك التل سار الى قل آخر تجاهه يشرف على عكة . وكان العرب الرجال يخرجون كل يوم ويبارزون الرجال الفرنج . قيل ان الفرنج خاطبوا يوماً العرب الداخلين قائلين : لقد شئنا الحرب نحن وانتم واكفينا . فاليوم نرم ان نشرح بيارزة الفتيان الضعفاء . ثم هتأرا مائة فتى فرنجي ومائة فتى عربي جهلوا يبارزون بقذف الحجارة بالذني والرمح واخيراً هزم الفتيان الفرنج الفتيان العرب وحشروهم في المدينة .

ويوم الاربعاء ٢٠ رجب كانت الملحمة العظيمة اذ برز الفرنج من خيامهم كالجراد وبرز الملك كذلك وامامه كتاب الانجيل مجالاً بقماش حرير احمر يحمله الكهنة فوق رؤوسهم . فهلع صلاح الدين وأوقع صيحة هائلة في جنوده وخوتهم (٣٨٣) وأذعرهم . وبعد هذا وثب الفرنج من الناحية اليسرى الى العرب في الناحية اليمنى حيث كان تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين وقد جاهد جيداً تجاه الفرنج . ولما شاهد ملك الفرنج ان العرب لم يتزعزعا تشدد بروحه وصنع اشارة الصليب على وجهه وخرق قلب الجيوش العربية حيث كان الأفضل والظافر ولدا صلاح الدين . وقطب الدين بن نور الدين بن قرا ارسلان

صاحب حصن كيفا وابن لآخين صاحب نابلس وغيرهم كثيرون. وما ان اشتبك
احدهم بالآخر حتى اخذ الفرنج يحصدون العرب حصاد القمح بالمناجل ولاذ العرب
بالهزيمة وتنبهم الفرنج في سيوفهم وهم يهتفون بأبواقهم هتافاً شديداً. وانكسر
العرب كسرة هائلة. وقصد الفرنج معسكرهم ونهبوا خيامهم وفتكوا بكل
السوق. ووصل المنهزمون الى دمشق وطبرية.

اما الفرنج فبعد ما طاردوا العرب نحو فرسخ عادوا فأروا الباقيين مطحنيين
في الناحية الشمالية لا يتحركون. وبما انهم أعيوا لم يروا ان يتحسروا بهم بل
قصدوا خيامهم ليسترجموا. غير ان صلاح الدين جعل يصيح وينادي ويشجع
المنهزمين حتى عادوا الى خيامهم كالأمرات. وأحصي عدد القتلى فكان اربعة
آلاف ومائة. على ان صلاح الدين أسر العرب الذين في عكة ان يلقوا الجثث
في البحر فقام احدهم ويده خيط وجعل كلما القوا واحداً عقد عقدة. وسقط
من الفرنج نحو الفين. حينئذ اشار الزعماء على صلاح الدين ان يرحلوا ويتشدوا
قليلاً عن الفرنج يتطأون بجدوث فساد في المناخ من جرى نتونة اجسام القتلى.
فارتحلوا الى مكان بعيد واشتغل الفرنج بحفر خندق كبير من التل حتى البحر
بينهم وبين الجيش العربي الخارجي ثم احدثوا بعكة من جهة البحر وسدوا
الطريق في وجه العرب وتعذر الدخول الى المدينة والخروج منها.

(٦٨٤) وبلغ صلاح الدين ان ملك الالمان^١ قادم بطريق قسطنطينية في
مائتي الف فارس وراجل فتأثر اشد التأثر وارسل يهاه الدين بن شداد سفيراً
الى خليفة بغداد والى سائر ممالك المشرق يستنفرهم ويستعجلهم ليعاودوه والّا
فالعربية تضحل لا محالة.

ولما دخلت السنة ٥٨٦ هـ للعرب (١١٩٠ م) اطأن صلاح الدين بسبب
انقراحه عن معسكر الفرنج الذين وتجهوا افكارهم كلها نحو عكة. غير ان
الفرنج باغتوا معسكر العرب وكان صلاح الدين يتحيد فأوقع اخوه العادل
صيحة في الجنود فركبوا وناوشوا الفرنج وسقط قتلى كثيرون من كلتا الجيشتين
ولو لم يدركهم الليل لأصبح الانكسار تاماً. وانتقل الفرنج الى معسكرهم
وهبطت الامطار وحصلت الأحوال بين الفريقين وتعذر على اي كان ركوب
(١) فردريك الاول ملك النمسة.

الحبل ومناوشة اقدمهم للآخر . وانقطعت الاخبار بين صلاح الدين وبين الذين في عكّة . وقد سبّح اقدمهم في البحر ووصل اليه واخبره ان الفرنج يحاربون المدينة حرباً عواناً وقد ابتزوا ابراجاً شاذقة تطل عليها وأمسى من في داخلها في ضيق شديد .

فركب صلاح الدين وتوجه نحو الفرنج ليلهم هنية عنهم ضمن المدينة وصادف هناك خنادق عميقة قد حفروها حولهم واضمح البوارج اليهم مستجيلاً . فغضب اصابعه ندماً وانتقلب وحلّ في تلّ العجول بعيداً جداً عن الفرنج . وأقبل اليه ملوك العرب كافة . نذكر منهم عماد الدين زنكي صاحب سنجار ومغز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود صاحب الجزيرة وعلاء الدين كرم شاه بن مسعود صاحب الموصل ومظفر الدين بن (٣٨٥) زين الدين علي كجك صاحب اربيل . ثم ادخل صلاح الدين الى عكّة صناعاً محشكين باضرام النيران وأحرقوا ثلاثة ابراج كبيرة للفرنج . غير انه تعالى اغاث الفرنج بريح شديدة هبت نحو المدينة ولولاها لاحترقوا جميعاً في لهيب تلك الابراج المائل . زد عليه ان الخندق الذي حفروه ثبطهم عن الفرار من تلك النيران المتأججة . اما الابراج المذكورة فكانوا قد أسوها على سحلات يدفونها متى أرادوا بأرماحهم ويلحقونها بالسور والمحاربين ضمناً . واذا أرادوا اجتذيرها اليهم بالحبال التي عندهم . ذلك عمل غريب يُذهل من يشاهده ويرويه .

اما ملك الالمان فلم يدعه اليونان ان يفسد قسطنطينية لكته عاندهم وتغلب عليهم ففتحوا له الطريق ووصل الى بلاد قلع ارسلان فحشد قطب الدين ملك شاه ابن السلطان جيوش التركان ونارث الالمان فانكسر وولى هارباً في جيوشه . ووصل الالمان الى قونية وفتحوا بكثيرين من اهلها . وفي تلك الاثناء توجه پياس ميخائيل القيس اليوناني والكاتب الملقب الى قونية ليدفع الحراج فاجهر عليه التركان وقتلوه . وظلّ قلع ارسلان متحصناً في قلعة قونية ثم ادى مبالغ ملك الالمان وعقد معه الصلح وفتح له الطريق فاقبل الى قليقية وانطلق اليه لاون بن اسطفان بن لاون صاحب قليقية وزاره في طرسوس واعرب له عن خضوعه وطاعته . ثم توجه ملك الالمان وهو شيخ ليسبح في النهر وكان

البرد شديداً يومئذ فوعك ومات^(١) هناك ونقل ابنه رفاقه الى انطاكية . ثم توجه سائر الالمان الى اطراف طرابلس وقد خارت قواهم وركبوا البحر الى عكة غير ان اغلبهم قضا مرضى في قيلية ولم يبق منهم الا التذر القليل .

(٣٨٦) واقبل في تلك الغزون ملك انكلترا^(٢) ونزل في قبرس وانتزعاها

من اليونان واستأنف المسير الى عكة فاشتد ساعد الفرنج بقدمه . وكان في

تلك المدينة عشرة امراء عروب فارسلوا يقولون لصلاح الدين : ان المعارك المتواصلة

قد أوهنت قوانا وأضعفتنا ودب المرض فينا . فكان جوابه ان يغادروا المدينة

بحراً . وأرسل من نائب منابهم من لم يكونوا منجذرين في القتال على السور .

بناء عليه تفرز الفرنج وأقاموا سبعة منجنيقات وجبهوها نحو برج واحد . وارفد

ملك انكلترا سفيراً الى صلاح الدين يقول : لا بأس ان نخشي انا وانت في

مكان ما وتدبر تدبيراً يفيد الطرفين . فأجاب صلاح الدين : ينبغي أولاً

ان نذكر امر الصلح وبعد هذا نجتمع معاً . لانه لا يحل بنا ان نعود الى

القتال بعد المحادثة والمنازمة . وأتفق ان ملك الانكليز وعك يومئذ واشتد

مرضه مما أخر الفرنج عن متابعة الحرب . ولما تعافى ارسل تكملاً سفيراً الى

صلاح الدين يقول : لا تلنني بسبب سكوقي لان المرض اعاقني عن مراسلتك .

والآن فقد تمافيت وأرسلت استأذنك في ان اوجه اليك بعض الهدايا اذ لا

يجدر بالملوك ان يقطعوا جبل المواصلة والمبادلة بالهدايا والسفراء والبارات الحية

حتى في اثناء الحرب . هذا ما تلبثنا اياه شرائع آباءنا الماوك الاقدمين . فقال

صلاح الدين : ان بادلتونا بالهدايا بادلتكم بملهما . قال السفير : ان عندنا بواشي

ونسوراً وطيوراً وحمام زاجل قد ادركها الضعف فأعطونا دجاجاً وزغاليل

تقتات بها وتنتمش ثم نحضرها اليكم . تبسم العادل اخو صلاح الدين وقال

(٣٨٧) للسفير ممازحاً : يا ان ملك انكلترا قد ابل من وعكته فلا ريب انه

يحتاج الى زغاليل بتمرضه لذكر البواشي .

وبعد هذا وشح صلاح الدين السفير الانكليزي بحلة ملكية وسير معه

طائفة من الدجاج والزغاليل والحمام . وما مرت ثلاثة ايام حتى عاد السفراء

(١) ذكر مؤرخو الفرنج ان هذا الملك غرق في النهر في حزيران ١١٩٠

(٢) هو الملك رشارد الذي بسبب بساته أطلق عليه لقب « قلب الأسد » .

الفرنج الى صلاح الدين وطلبوا منه ثاراً وتلجاً فأعطاهم وعادوا . قيل ان ملك الانكليز لم يتوخ في ارسال الوفود مرة بعد مرة اخباراً فارغة لكنه كان يريد ان يقف حقيقة على ما عند صلاح الدين والملك الذين معه من الجيوش . ولما اشتد الحصار على العرب ضمن عكة بعثوا الى صلاح الدين قائلين : أرسل الينا من ينجدنا والّا فاننا نسلم المدينة . وكان صلاح الدين لا يهتبه الا ان يشغل الفرنج في القتال . ولذا قدم الفرنج جيوشهم قسطين فوضوا الى الاول مبارزة العرب خارجاً والثاني مبارزتهم داخلاً . ولما استيقن الذين ضمن البلد بالانكسار سألوا الامان . فقال لهم الفرنج : ان نأبي طلبكم الا اذا رد لنا صلاح الدين جميع الاسرى الفرنج وجميع المدن التي انتزعتها منا . فراساوه في ذلك فقال : اني اطلق ثلاثة آلاف اسير فقط بدلاً من العرب الذين في عكة . واذا تركوا لنا عكة بادئهم مدينة عرض مدينة . والّا فليأخذوا تلك المدن باليف كما سبقت فآخذتها .

ولما بلغ الفرنج ذلك تعرشوا حالاً بالسلم الى الاسوار وانحدروا الى المدينة . وبطشوا بالكثيرين . ثم حشدوا بقية الاهالي في ناحية فقال لهم هؤلاء : اعفوا عنا ريثما ترسل صلاح الدين لينقذنا بالذهب وعن تطلبون من الاسرى الفرنج . فوافق الفرنج على ذلك واعطاهم مائة اربعة عشر يوماً حتى يبدو القصر الجديد . وقالوا : اذا دفع لنا صلاح الدين مائتي الف دينار ذهباً ومائة اسير متين (٣٨٨) نكتب اسماءهم من القمامة والكوزنية وغيرهم مع الف وخمسة مائة اسير نجعل اسماءهم فعند ذلك نعتقكم . فارسل اولئك العرب الى صلاح الدين واخبروه بالامر فاجتمع بزعمائه وشاورهم فقالوا بغير واحد : از هزلا . العرب هم اخوتنا فيجب ان نقتلهم . فامتلأ المشورة وكتب الى البلاد فجعلوا الاسرى الفرنج . اما بشأن الذهب فقرروا ان يؤدوا ثلثه في كل عشرة ايام . وعند انتهاء الايام المشورة ارسل الى الفرنج يقول : اطلقوا جميع من عندكم من العرب ثم ندفع لكم ثلث الذهب والرهائن بدلاً من الثاين الباقين . او ادفعوا لنا رهائن بدلاً من ثلث الذهب الذي تقبضون . فقال الفرنج : تكفيكم كلمتنا وتقربونا بشأن الرهائن . فاستنظ صلاح الدين جوايهم ورفض طلبهم فسخطوا كل السخط واوثقوا جميع اولئك العرب بالحبال واستاقوهم الى تل بظاهر المدينة وكوتموا

حرقهم حطباً كثيراً وجبالاً غنية وبراميلاً خمر وحشروهم واستلوا السيوف
وبطشوا بهم قاطبة وكان كاتب الديوان واقفاً يشاهدهم . وبلغ عدد قتلى
العرب على اسوار عكة وداخلها وخارجها في الثلث مائة الف ومثلاثمائة نسمة .
وجرى ذلك في رجب ٥٨٧ للعرب وفي آب السنة ١٥٠٢ لليونان (١١٩١ م) .
ولقد اسهبنا الكلام قليلاً في وصف هذا الحصار لما له من الشهرة لدى العرب
وقد كتبوا مجلدات في ذكر ما ناله من الضيق هذه المرة من الفرنج .

وبعد ما احتل الفرنج عكة اقاموا فيها جيشاً يحرسها وبنائين يرمون اسوارها
وارتحلوا نحو ارسوف . وارتحل صلاح الدين كذلك وكان الفرنج والعرب
يتعرشون بعضهم ببعض وهم سائرون في الطريق (٣٨٩) وقد نادى العرب
ذات يوم القتال الفرنج فاعتاظ ملك انكلترا وحمل عليهم بآس شديد وهزمهم
وشقت شملهم ولم يبق مع صلاح الدين الا سبعة عشر من خيرة العرب ونافخي
الابواق وحاملي الرايات . ولولا خوف الفرنج من كمين يتربصهم لتبصوا في ذلك
اليوم على صلاح الدين ذاته وقروصوا دعامة العرب تقريضاً تلمأ .

ووجه صلاح الدين يومئذ بنائين وفرساناً الى قلعة بغراس لينقلوا منها
الذخيرة ويدكروها . ولما وصلوا وباشروا العمل بلغهم ان لاون صاحب قيليقية
متأهب لينصب عليهم فتركوا القلعة ولاذوا بالفرار . وبلغ الانطاكيين خبر
هزيمتهم فزحفوا الى تلك القلعة وشاهدوا فيها اثني عشر الف مكوك من الحنطة
فنتقوا ذلك كله الى انطاكية وانفجروا وكان الجوع يومئذ قد ضايقهم جداً .
وما مر القليل حتى اقبل لاون وتغلب على الفرنج وانتزع منهم بغراس .

وارسل صلاح الدين فحارب عسقلان وافرغها من السكان . وكان الفرنج
قد ابتنوا يافا وعمروها وهي واقعة بين اورشليم وعسقلان . ولهذا السبب ادعى
العرب بانهم لا يستطيعون الى حراستها سبيلاً . وسار صلاح الدين الى اورشليم
واشرف عليها وحضنها بالرجال والعدة . وسار اليه بهذا ممر الدين صاحب
مطية يرفع الدعوى على ابيه السلطان قلاج ارسلان وعلى اخوته اذ كانوا يحاولون
انتزاع مطية منه . وقد رحب به صلاح الدين وزف اليه ابنة اخيه الملك العادل
واعاده الى مطية وشجعه بقوله : لا تخف أباك ولا اخوتك .

وارسل ملك انكلترا سفيراً الى صلاح الدين يقول : لقد امنت الحرب

عسكرنا وعسكركم فإلى متى تبقى الحال كذلك ؟ قد ارتوت سيفنا وسيفكم من الدماء . فاردد ما أخذته منا من البلاد ولا سيما اورشليم مقام ديننا وقد غادرنا اوطاننا بسببها فاذا وافقت على ذلك تركنا كل شي . وعدنا (٣٩٠) الى وطننا فترجع منا . فاجاب صلاح الدين : ان هذه البلاد لم تكن لكم فيما مضى بل لليونان . وقد انتزعها العرب منهم في غاراتهم الاولى ولما استضعفتموها اقامت فانتزعوها منهم . والآن فقد استرجعنا بلادنا منكم . اما اورشليم التي قلت انها مقام دينكم فهي مقام ديننا كذلك ونمتجرها اكثر منكم مثلاً اوصانا الله في قرآنه .

ثم ارسل ملك انكلترا ثانية الى صلاح الدين يقول : اريد ان يصاهرنى اخوك العادل فازف له شقيقتي التي قدمت معي لتسجد في اورشليم . فاذا وهبت المدن التي بساحل البحر لانيك واكتفيت انت بالقلاع والمدن فقط وظلت القرى باجمها للاخوة الدراوية والاستبالية فحين ذاك يتم عقد الزواج وانا استعمل اخوتي على جميع المدن الساحلية التي بيد الفرنج ويكون مركزها في اورشليم . لكن صلاح الدين لم يرض بذلك اما ابنه العدل فقد كلف بالابنة ووجه الزعماء والشيوخ الى اخيه ليقنعوه في ذلك . غير انه رفض كل الرفض فقال له اولئك الدماء : نحن عالمون ان الزواج لن يكون قطاً وان ابنة الملك الكبير ان ترضى الاقتران بعربي واخاه يعرف ذلك حتى المعرفة . ولله قال ذلك على سبيل المزاح كما دونه . وبناء عليه فلا تكسر خاطر اخيك . اقتنع صلاح الدين وارسل سفيراً في القبول . واقام السفير لدى الملك ثلاثة ايام ثم قال له في اليوم الثالث : قضيت هذه الايام الثلاثة احاول ليل نهار اقناع اخوتي فلم تقتنع الا بشرط ان يقتصر العادل . هكذا عاد السفير خائباً . وفي تلك الايام مات تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين في طريق خلاط وهو ذاهب ليحاربها فعملوه وردوه الى ميافرقين ودفنوه . وكان هذا يفيض (٣٩١) المسيحيين البغض كله ويفتك دون شفقة بالارمن الفلاحين المظلومين ببلد جبل جور . وكان معه ابن الملك المنصور فتحصن في ميافرقين وارسل يقول لصلاح الدين : ان ترعت مني بلاد ابي تقي الدين انضمت الى بكتمار صاحب خلاط . فلم يرض صلاح الدين الا ان يرض عنه مدة . وبعد ايام قلائل استعمل

المادل على بلاد ابيه واستعمله هر على الرها وحران وسيماط .
ولما ارتحل الفرنج والعرب الى عسقلان اقام العرب بعد يوم كيناً للفرنج
وهم خارجون من المسكر ليجتمعوا خطباً . وما ان اكتشف الفرنج الكين
حتى امتطى كلٌ منهم حصانه ووثبوا اليه وفتكوا بثلاثة من زعماء صلاح الدين
وقبض العرب على فارسين من الفرنج اعتيادين . ووجه ملك انكلترا سفيراً
الى المادل يعاتبه بشأن الكين ويقول له : ارغب ان اشاهدك واحديثك .
ونصب الفرنج خيمة كبيرة خارج معسكرهم فاقبل المادل واقام اليوم كله
لدى ملك انكلترا ثم ودع احدهما الآخر عند الغروب . وقال الملك للمادل :
ارغب ان اجالس اخاك السلطان كذلك في هذه الخيمة واشاهده واحادثه .
لكن صلاح الدين لما اخبره اخوه بذلك رفض الطلب لئيبين اولهما لحوفه وثانيهما
لانه لم يرَ ذلك موافقاً وكتب اليه يقول : لا يجدر بالملوك ان يجتمعوا معاً الا
بعد عقد الصلح والحال ان ذلك لم يتم بعد . واذا اقتضنا عقده فانا لست
افهم لفته ولا هو يفهم لفتي . ولا بد من مترجم يترجم بيننا . فالأحرى اذا
ان تقيم السفير ترجائاً ونعدل عن المواجهة . ولما اقبل الشتاء سار ملك انكلترا
الى عكة وصلاح الدين الى اورشليم وبث اليه باربعة وعشرين الف دينار ذهب
في اعتاق الاسرى العرب .

ولما دخلت السنة ٥٨٨ للعرب (١١٩٢م) زحف (٣٩٢) الفرنج الى عسقلان
وجعلوا يرمون ابنتها . وكان المركيز صاحب صور قد اختلف مع ملك انكلترا
وحاول ان يتقرباً فاراد الملك ان ينتدعها من يده . فكتب المركيز الى
صلاح الدين في الانضمام اليه ومبارزة الفرنج ابناً . فنه . ولما كان سفير
المركيز لدى صلاح الدين وثب اليه رجلان اسميليان تزيياً برياً الرهبان وطعنه
احدهما بالكين . وانجزم الثاني الى كنيصة قريبة نقلوا اليها سفير المركيز
كذلك فثار اليه الاسميلى المذكور عندما سمعه يتكلم واجهز عليه ضمن الكنيصة
بطعنة ثانية . وقد قبض الفرنج على ذينك الاسميليّين ونكلوا بهما فادعيا ان
ملك انكلترا هو الذي سيهما . فوثق الفرنج بقولهما بسبب الخلاف الذي حصل
بين الملك والمركيز كما ذكرنا . غير ان الحقيقة انجلت اخيراً واتضح ان
سيثان زعيم الاسميليّين هو الذي ارسلها ليقتكها به .

وبعد هذا استعمل ملك انكلترا على صور الكنت هنري فاقتن بامرأة
المركيث وضاجهها وهي حامل خلافاً للناموس .

ثم تشدد الفرنج وساروا الى داروم وانزعوها من المسلمين عنوةً واجهزوا
على كل اهلها . وفي تلك الغزوة تعرض الفرنج لقافلة من المسلمين كبيرة
قادمة من مصر حاملة ذهباً لصلاح الدين . وبلغ صلاح الدين ان الفرنج متأهبين
للتحرف الى اورشليم فحشد جيوشه واستعد للمركة . وحضن اسوار المدينة
وافسد جميع القنوات التي بظاهرها . عرف ملك انكلترا فشط الفرنج عن
الترحف وقال لهم : (٣٩٣) ان ضواحي اورشليم خالية من المياه وقد افسد
العرب المياه المجاورة لها والنهر بعيد عنها فرسناً وكسوراً ولا يغلبن على ظنكم
ان اورشليم هي مثل عكة . صدقوني لولا البحر لما تيسر لنا ان نحصرها اكثر
من يومين . فوافق الجميع على مشورته وزحفوا نحو غرة .

اما صلاح الدين فقد سرّ باتتراح الفرنج عن اورشليم ولكنه بات يتخوف
على مصر . واذا ذاك وجه الملك سفيراً اليه يقول : لا يتبادرن الى ظنك اني
انغمضت خوفاً او ضعفاً . كلا . فان الكيش لا يعود التهمري الا يضرب
الراس . فان رأيت ان تعقد الهدنة على ما نطلب فذلك اذكي لك وقد سبقت
فاخبرتك . وبعد مراسلات شتى عقدت الهدنة على ان تبقى بلاد الفرنج للفرنج
اعني يافا وضاحيتها وقيصرية وارسوف وحيفا وعكة وانطاكية وطرابلس .
وتبقى سائر البلاد للعرب وتسي عـقلان خراباً . ودفع صلاح الدين للفرنج جميع
ما انفقوه على ترميمها . وفتحت الطرق واقبل جمهور من الفرنج وازادوا
اورشليم وبالغ صلاح الدين في اكرامهم وبذل لهم العطايا واعطاهم خيلاً وكثيراً .
قيل ان ملك انكلترا ارسل الى صلاح الدين يقول : كل فرنجي خالٍ من
علامتي لا تدعنه يدخل اورشليم . فاجتمع صلاح الدين بالعتلا . واستفسرهم عن
تلك العلامة . وبعد التروي قالوا له : ان اقوى داع يحمل الفرنج على حج
اورشليم انما هو العبادة لا غير فاذا حجوا وعادوا الى اوطانهم فلا تبقى لهم رغبة
في العودة . ولهذا فالملك يخرج عليهم الحج حتى اذا عادوا ثانية واراد ان يأتوا معه
لزمهم ان يكونوا مستعدين . ولما فهم صلاح الدين السبب ارسل يقول للملك : ان
هؤلاء الناس هم غرباء . يتعذر على ان ازعجهم اما انت فقي وسلك ان تنهاهم .

وبعد ما احتل الفرنج عكة اعتقلوا زعيمين عربيين (٣٩٤) هما ابن المشطوب وقرقوش الحاجب وهذا كان رومي الاصل وارسله صلاح الدين الى افريقية وفتح مدناً كثيرة وعاد الى مصر وابتنى سوراً عُرف باسمه حتى اليوم . ثم أُحيلت اليه قيادة الجيش في عكة . ولما قرّر الفرنج ان يدفع لهم ثمانية آلاف دينار دية قال لهم : بكم اعتقم ابن المشطوب ؟ قالوا بثلاثين الف دينار . قال لهم : اني اودّي مثله اذ ليس من الصواب ان يزدي هو ثلاثين الفاً وانا ثمانية آلاف . فقهقه الفرنج وقبضوا منه كذلك ثلاثين الفاً . ولقرقوش هذا حكايات مثل هذه منها ان شاعراً نظم فيه كتاباً كاملاً لم يبرزه الا بعد موته . وبعدما عُقد الصلح سار صلاح الدين الى بيروت واقبل اليه البرنس بوهيند صاحب انطاكية فبالغ في اكرامه ووشحه بجلل ملكية ووشح كذلك الزعماء . الاربعة عشر الذين معه واعطاه نصف ربيع بلد انطاكية الذي احتله العرب . ولقد دهش صلاح الدين من قدوم البرنس اليه بثقة وطائفة ولذا اكرمه اكراماً جزيلاً وودّعه بسلام . ومن بيروت توجه صلاح الدين الى دمشق . اما ملك انكلترا فقد استعمل على عكة القنص هنري ابن اخته واجر الى وطنه . ويقال انه توفي قبل الوصول اليه ^١ .

وفي سلخ آب ١٥٠٣ لليونان (١١٩٢ م) مات السلطان قلاج ارسلان في قونية . وكان ذا هيبة وصرلة وذكا . وانتزع عدة مواضع من اليونان . لكنه عندما بلغ الشيخوخة وزع بلاده على اولاده وامسى بينهم نظير ناجز وكان اذا قام مدة عند احدهم لاجل غدائه انتهزم الى ابن اخر . وعندما سار الى غياث الدين كيكسرو صاحب مدينة بروغلو رحب به كل الترحيب (٣٩٥) ونهض بخدمته . اجمل نهوض . وحشد الجنود واسلطصحب اباه الشيخ وقصد قونية وانتزعها من قطب الدين اخيه . ثم زحفا الى اقسرة وهناك قلاج ارسلان فقتله ابنه كيكسرو الى قونية فيها توفي ودفن وتولاها هو حتى انتزعها اخوه دكن الدين وسنذكر ذلك ان شاء الله تعالى . واستغرق ملك قلاج ارسلان بن مسعود ابن قلاج ارسلان بن سليمان بن قتليش بن ييغو بن سلجوق بن توقاق ثاني وثلاثين سنة . وخلّت اثني عشر ملكاً .

(١) وصل الى وطنه ونو في عام ١١٩٩ م .

وفي تلك النضون انتابت صلاح الدين حمى شديدة ومات في دمشق ليلة الاربعاء ٢٧ صفر ٥٨٩ لله^١ وخلف سبعة عشر ابناً وابنة صغيرة . ولم يكن في خزانته حين موته الا دينار واحد وستة وثلاثون فلساً لانه كان كريماً جواداً وهذا ما جعله ان ينجح في شؤونه . قيل انه لما ملك دمشق اخرج كل ما كان في الخزانة من دنانير ودرهم وكومها امامه وهي كمية وافرة وامر ابن المقدم ان يوزع حفنة حفنة على كل من الرعما والفرسان والبيد . ولما اخذ الحفنة زجره صلاح الدين قائلاً : املاً حفتك . فضحك ابن المقدم . فسأله عن سبب ضحكك فقال : اني اذكر ان نور الدين كان يوماً جالساً . فكانت واحضروا اليه علة مملوءة من الزبيب الحيد الكبير وقال لي : وزع بحفتك على الرعما . ولما اخذت املاً حفتي قال لي يهدوه : ان وزعت هكذا فلن يكفي جميعهم . فضحك صلاح الدين وقال له : ان البخل انما يوافق التجار لا الملوك . اذا (١٣٦) لا توزع منذ الان بيد واحدة بل بيديك كلتيهما . وذكر احد الحضور ان الحفنة التي اصابها كانت مائة وثمانية وخمسين ديناراً . وقيل ايضاً : ان صلاح الدين لما كان يحاصر عكة وركب يوماً مع قاضي المعسكر سمع رجلاً يهودياً ينادي ويقول : اني انتظمت الى الشرع العربي . فسأله البيد من هو خصك ؟ ومن الذي آكل حقلك ؟ قال : ان خصمي هو السلطان وعيده تعدوا علي . فلم يخط صلاح الدين بل تزل للطل عن حصانه وتزل معه القاضي كذلك واستدعى اليهودي واقامه الى جانبه . فقال اليهودي : انا رجل يهودي تاجر دمشقي انجرت من الاسكندرية في عشرين حملاً سكرًا وما كدت ابلغ مرفأ عكة حتى انتهني عبيدك وقالوا لي : انك كافر وما انت هو السلطان . فامر صلاح الدين باحضار الذين اخذوا السكر فصرحوا بانهم نقلوه الى الخزانة . فامر الخزانة فادوا لليهودي ثمن السكر . ولما كان صلاح الدين جالساً يوماً مع الرعما اخذ البيد الصغار يلعبون معاً وقذف احدهم حذاء على صاحبه وسقط الحذاء عند ركة صلاح الدين فالتفت الى الناحية الاخرى وجعل يحدث جليسه هناك متظاهراً بانه لم يَرَ ما صار . وعطش يوماً وطلب ماء فقال البيد احدهم للآخر : هلم ماء .

واغضوا ولم يأتوا شي . فطلب ثانية وثالثة وخامسة ولما احضروا الماء اخذ وشرب دون تذمر . ونهض يوماً من فراشه وقصد الحمام وطلب ماء بارداً ليشرب ولما احضره اليه سقطت قطرات على جسده فاهتز بسبب مرضه وأبى ان يشرب ومكث ساعة حتى ازداد عطشه فتضايق وطلب الماء ولما اتاه به الخادم ارتخت يده خروفاً وسقط الطش وتدفع ذلك الماء البارد كله على جسم صلاح الدين (٣٩٧) فاقشعر اقشعراً شديداً واكتفى بان يقول لذلك الخادم : قل لي هل تنوي ان تقتلني ؟ ولم يزد .

وسمع بكسر صاحب خلاط بتوت صلاح الدين ففرح الفرح كله وحشد الجنود ليحلف الى ميافرقين . فوثب اليه صهره هزرديناري عبد شهرامان وقتله وملك مكانه . وحافظ على محمد ابنه الصغير ورباه تربيته لابنه . ومات في تلك السنة كذلك سينان امام الاسماعيليين في مصريات وخلفه الناصر الفارسي . وكان ملوك العرب والفرنج يباينونه . وقد اعد سكاكين كتب على كل منها اسم واحد من الملوك . وعندما كان يدفع سكيناً الى احد اصحابه كان لا بد له من انجاز مرامه ولو طوح بذاته في البحر . وتضلع سينان من شتى العلوم وعلم تناسخ الارواح طبقاً للرأي الافلاطوني ولقنه لاصحابه . ولهذا السبب كانوا يستخفون الموت زاعمين انهم يبقون احياء بعد ان يقتلوا . وكان يخفي مراراً ويذاع عنه انه قد مات ثم يظهر ثانية . ولهذا اعتقد اصحابه بعد موته انه حي يروق .

وفي السنة ١٥٠٤ لليونان (١١٩٣ م) احتال لاون صاحب قيليقية على البرنس بوهيوند صاحب انطاكية وقبض عليه . ذلك ان بغراس كانت في حوزة لاون كما ذكرنا آنفاً ولما تركها العرب وانهزموا استرجعها ولقن حاكمها الارمني ان يحدث البرنس سراً ويباه انه يحاول الانتفاض على لاون مولاه ويسله القلعة ويعود الى انطاكية ويقع بها . فارسل الحاكم الى البرنس ووعده بتسليم بغراس وصدقه البرنس وخرج كمن يقصد القنص وخرج معه ابنه وامراته ولما وصلوا الى العين المجاورة للبلد دلى لهم الحاكم (٣٩٨) طاماً . وخمراً وقال لهم : لا يثبت لكم ان تدخلوا القلعة نهراً ولكن اذا جن الليل واقبلتم وجدتم الابواب مفتوحة ودخلتم خفية . ولا حاجة ان تحضروا معكم من

الفرسان احداً لئلا يشمر الحراس ويفتضح السر . بل اتركوهم يكتفون قريباً .
صدق البرنس كلام الحاكم وغادر العين متظاهراً بأنه متوجه الى انطاكية .
ولما كان المساء رجع هو وامراته وابنه وخدامه الصغار ووصلوا الى الباب
وشاهدوه مفتوحاً ودخلوا مسرورين . وقال لهم الحاكم : ناموا الان واستريحوا
حتى الضحى فتشاور ونستدعي الفرسان شيئاً فشيئاً ونقبض على الحراس . ولما
ناموا ارسل الحاكم الى لاون وكان كامناً هناك فاقبل مع جمهور من الارمن
ودخل بغراس وقبض على البرنس واعتقله بالقيود واعتقل كذلك امراته وابنه
بالسلاسل ونكّل بالبرنس تنكلاً شديداً انتقاماً منه لانه سبق فنكل بروفين
اخيه . وظل البرنس معتقلاً ريثما اقبل هنري ابن اخت ملك انكلترا واعتقه
بالوعد والوعيد .

واشتد ساعد لاون على اثر موت السلطان قلعج ارسلان واحتل اثنين وسبعين
حصناً بعضها من الاتراك وبعضها من اليونان واحرز النصر في كل مواقعه .
اما عز الدين محمود صاحب الموصل فلما بلغه خبر وفاة صلاح الدين همّ ان
يستولي على سورية . فارسل الى عماد الدين اخيه صاحب سنجار ونصيبين والى
سنجر شاه ابن اخيه صاحب الجزيرة والى مظفر الدين بن زين الدين صاحب
اربيل وجيزهم جميعاً ليشعروا البلاد من آل صلاح الدين . غير ان
الملك الافضل بن صلاح الدين الاكبر وكان متولياً دمشق مكان ابيه ارسل
الى عمه العادل وكان يومئذ في دمشق واستحضره قسراً ليتولّى قيادة الجيوش
ويبارز احزاب اتابك . وارسل كذلك (٣٩٩) الى اخيه الملك العزيز في مصر
والى الملك الظاهر اخيه الثاني في حلب والى ناصر الدين بن تقي الدين ابن
عمه في حماة والى الملك المجاهد بن ناصر الدين ابن عم ابيه في حمص وحشد
الجنود منهم وسيّرهما مع عمه العادل الى مرج الریحان بضواحي الرها . ولما جمع
عز الدين صاحب الموصل حشد هو كذلك جيوشه واقبل الى نصيبين وهناك
اصابه سهال اضطره ان يعود الى بلده وما عثم ان مات . وكان رجلاً خيراً
عفيفاً محسناً لم يشاهده لحد يخاطب جليلاً الا وهو مطروق . ولم يسأله احد
شيئاً الا لبي سؤاله . وخلفه ابنه نور الدين ارسلان شاه وكان قيماً مجاهداً
الدين قياز .

وفي السنة ٥٩٠ للمرب (١١٩٣ م) زحف علاء الدين تكتيش خوارزمشاه الى خراسان ولاقاه السلطان طغرل بجانب الري وقتل طغرل وارسل رأسه الى بغداد وعلق برأس قصبة ونصب بباب بلاط الخليفة . وملك خوارزمشاه همدان وسائر البلدان واقام له نائباً اسمه فوتولغ اينايغ بن البهلوان سلطان همدان سابقاً . وهو الذي ارسل واحضر خوارزمشاه عندما انكث السلطان طغرل من حبسه وتطلب عليه وانتزع بلاده . وبطغرل هذا انتهت الدولة السلجوقية في خراسان وبقيت دولتهم التي ببلاد الروم . وهو ابن ارسلان بن طغرل بن محمد ابن ملكشاه بن ارسلان بن داود جفري بك بن ميخائيل بن سلجوق بن توقاق . وفي تلك السنة اقبل الملك العزيز صاحب مصر الى دمشق لينتزعها (١٢٠٠) من الملك الافضل اخيه الكبير . فسار الملك العادل عمهما وحالهما بان تبقى اورشليم للعزيز وجبله واللاذقية للملك الطاهر صاحب حلب وبعض قرى مصر للعادل . وبعد ما تهادنوا عاد كل منهم الى بلده .

وفي السنة ٥٩١ للمرب (١١٩٤ م) وجه الخليفة الناصر جيوشاً مع سيف الدين طغرل احد زعمائه الى اصفهان فسلمه اياها الى لشديد بغضهم للخوارزميين الطغاة الذين تغلبوا عليهم . وفي السنة عينها تمياً للملك العزيز صاحب مصر ياتي الى دمشق وينتزعها من اخيه الملك الافضل . ولما سمع الافضل سار بذاته الى قلعة جبر يريد عمه العادل واخاه الطاهر ليستنجد بيها فاقبلوا معه الى دمشق واقبل كذلك الملك العزيز وارسلوا الى العادل والافضل يقولون : دالماً الينا ونحن نسلمكما اياه . فشر العزيز بالاكيدة واستعجل في العودة الى مصر فتبعه العادل والافضل الى مصر ووصلا الى بليس وكان في امكانهما ان يحتلا مصر لكن العادل استسهل الافضل وعاد الصلح وتولى الافضل الى دمشق وتولى اورشليم كذلك . واقام العادل في مصر وتولى سياسة مملكة العزيز .

وفي السنة ٥٩٢ للمرب (١١٩٥ م) برز للملك العادل والملك العزيز من مصر واقبلا الى دمشق لينتزعها من الملك الافضل . فاستعد هذا للحرب على اسوارها ورزع الابواب والابراج على زعمائه . غير ان عز الدين الحمصي حارس الباب الشرقي انتفض على الافضل وادخل العادل الى دمشق وتوجه الى دار اسد الدين شيركوه عمه ثم دخل الملك العزيز كذلك وانتزعا المدينة من الملك

الأفضل واستعلاه على قلعة صرخد فسار إليها . وعاد الملك العزيز إلى مصر واستمر العادل في دمشق كانه نائب مناب الملك العزيز وكانت السياسة كلها بيده والاسم للملك العزيز . وقد ارسل الملك الطاهر غير مرة من حلب إلى الملك الأفضل يقول : لا تصدق العادل لانه لن يجديك نفعا . وانا اعرفه اكثر منك . لاني صهره وابن اخيه . ولو عرفت انه يشفق علينا لعاملني افضل من معاملته لك . فاجابه الأفضل : لقد ساء ظنك في من هو قائم مقام ابينا ولا يمكن ان يؤذينا .

وفي السنة ٥٩٣ للهـ للغرب (١١٩٦ م) تحرش العادل بالفرنجة مدعياً ان الصلح قد انقضى بوفاة ملك انكلترا وصلاح الدين . فسار إلى يافا واحتلها عنوة . وارسل الفرنجة الذين في ساحل البحر إلى اصحابهم يقولون : الحقونا سريعاً والا احتل العرب كل البواحل . فوجه الفرنجة جيوشاً ضخمة وعلى رؤسهم رجل من الاكلبيس يقال له شمس الدين وزحفوا إلى تبين وحاصروها حصاراً شديداً وكادوا يحتلونها لو لم يقاومهم الخبر بان هنري صاحب عكة سقط من مكان عال ومات . فأتجوا الحرب اذ لم يبق لهم ملك وارساوا في استحضار صاحب قبرص وزفوا اليه امرأة هنري . وما ان سمع العادل حتى ارسل في الصلح بشرط ان تكون بيروت للفرنجة وتبين للغرب قدرتها للفرنجة وانطلقوا .

وفي تلك السنة مات منكشاه بن خوارزمشاه في نيسابور وخلفه قطب الدين محمد مع ان المملوكه كانت تحت اخيه هندوخان طبقاً لوصية ابيه . ومات اذ ذاك كذلك سيف دين الاسلام طنتكين بن ايوب اخو صلاح الدين صاحب بلاد اليمن وخلفه ابنه اسمعيل ولم (١٢٠٢) يكن مهذباً فوئب اليه الزعماء وقتلوه . وفي السنة ٥٩٤ للهـ للغرب (١١٩٧ م) توفي عماد الدين بن زنكي بن مودود بن زنكي بن اقسنتور صاحب سنجار ونصيبين والحلب والرقّة وخلفه ابنه قطب الدين محمد وكان وصيه مجاهد الدين بن يقش عبد ابيه .

وفي تلك السنة زحف نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل إلى نصيبين وانتزعاها من قطب الدين محمد ابن عمه . ذلك لان قطب الدين توغل في بعض قرى ما بين النهرين بمجدود الموصل فارسل اليه ليردها فأبى فحشد الجنود وترجه إلى نصيبين وقاتل قطب الدين وكسره وهزمه إلى حران . فارسل إلى العادل

يستنجده . اما نور الدين فبعد احتلاله نصيبين واقامته بها اياماً دبر المرض في عساكره وقضى على ستة من زعماء الموصل المشاهير بينهم مجاهد الدين قيباز حاجبه فاضطر ان يغادر المدينة ويعود الى الموصل فانقلب قطب الدين واسترجع نصيبين .

وفي تلك السنة سار خوارزمشاه الى بخارى وانتدعها من الخطا الصينيين وكان العرب البخاريون راتعين مع الصينيين الحكماء العاديين في مجامع السلام على رغم مخالفتهم لهم في الدين . وهذا ما حملهم على مقاتلة خوارزمشاه على الاسوار اشد ما يكون حتى انهم احضروا كلباً البسوه ثوب خوارزمشاه والقوه الى الاهالي يقولون : هذا ملككم . غير ان خوارزمشاه بعد ما احتل المدينة عفا عنهم ودفعت لهم ذمياً واستخلفهم واحسن اليهم .

وفي السنة عينها زحف الملك العادل الى ماردن وحاربها حرباً عواناً . وكان صاحبها حسام الدين قتي صغيراً وقينه نظام الدين بن يقش . على ان الاهالي خدعوا وسلموا المدينة ودخلها جنود العادل وانتبهوها نهياً قبيحاً واقتلوا فيها الاهوال (٤٠٣) وظلوا يحاصرون القلعة .

وفي السنة ٥٩٥ للعرب (١١٩٨ م) مات الملك العزيز بن صلاح صاحب مصر . وكان قد خرج الى القنص يطارد ذئباً فسقط عن الحصان واصابته الحصى فعاد الى القاهرة ومات فيها . وخلف ابناً صغيراً اسمه الملك المنصور فحصل خلاف بين الاقطاب وشاء بعضهم ان يكون الصغير خلفاً لايه وبمضهم . اختاروا العادل وغيرهم الافضل . وتغلب احزاب الافضل وارسلوا فاستدعوه من حدرخد وملكه . وعند ذلك لاذ خصرمه بالفرار الى اورشليم واحتاوها . اما الافضل فحشد جيوش مصر وغادرها يريد دمشق . فارسل الدماشقة الى الملك العادل وهو في ماردن فترك فيها ابنه الملك الكامل محمداً وسارع الى دمشق . واقبل الافضل كذلك وحل فيها . غير ان جيوشه اختلفوا فتركوا وانقلبوا الى مصر ولم يستفيدوا شيئاً من قدومهم .

اما الكامل بن العادل فظل يضايق الماردنيين الذين في القلعة حتى قلت ذخيرتهم وانتابهم المرض . وعزل نظام الدين وصي الصبي حسام الدين ان يسلم القلعة . غير ان نور الدين صاحب الموصل وولدي عتي صاحب سنجار

وصاحب الجزيرة ثاروا عندما سمعوا الخبر وقال احدهم للآخر : اذا احتل اصحاب المادل ماردن احتاروا . كل بلادنا . فاتفقوا لذلك اتفاقاً تاماً وزحفوا جميعاً الى دقيسر . وانحدر الكامل الى البزبة واصطدم به المواصله وكسروه . فانهزم مع اصحابه الى ماردن ولما وصلوا اليها شاهدوا ان المحاصرين في القلعة قد انحدروا الى المدينة ونهبوا الحياض واضطر الكامل ان يعود تلك الليلة الى حران ومنها الى دمشق عند ابيه المادل . قيل انه : لو لم ينحدر اصحاب الكامل من الجبل الى البزبة لتعدت (١٠٤) على المواصله ان يزحزحوهم عن ماردن وكادوا يحتلون القلعة كذلك غير ان الله جلّت احكامه يصنع ما يشاء .

وفي السنة ٥٩٦ للعرب (١١٩٩ م) حشد الملك العادل جيوشه وسار الى مصر . فسمع الافضل وجيش كذلك جيوشه وخرج ليبارز عته فانكسر وانهمز ليلاً الى القاهرة . وسار المادل وحاصرها واراد ان يحاربها . عند ذلك اشار الاقطاب على الافضل ان يرسل ويطلب الصلح بسبب جزه عن مناوراته . فامتلح الافضل المشورة وسأل ان يتولى دمشق بدلاً من مصر لكن الملك العادل رفض . ثم طلب الرها وحران فلم يلبّيه المادل . ثم طلب ميافرقين وحاني وجبل جرد فوافق المادل . وأقسم احدهما للآخر وانطلق الافضل الى صرخد وبعث ذويه ليتساوروا ميافرقين . أما نجم الدين ايوب بن المادل فقد امتنع ولم يسلم . وارسل الافضل الى المادل يخبره فاحتجّ العادل بان ابنه متمرّد وعاصي . ولما عرف الافضل ان ذلك اتفاق جرى بينه وبين ابنه اغضب وعبدل عن ارسال وسيطر في الأمر .

وفي تلك السنة مات خوارزمشاه تكش بن الب ارسلان صاحب خوارزم . وبعض خراسان كالكري وبعض بلاد الجبل وخلفه ابن قطب الدين محمد ودُعي علاء الدين باسم ابيه . وفي السنة عينها مات القاضي الفاضل الفقيه المصري وحيد عصره في مصر .

وفي السنة ٥٩٧ للعرب (١٢٠٠ م) التقى المادل الحلبية للفتى الملك المنصور ابن الملك العزيز فاستاء الاقطاب وكتبوا الى الملك الافضل في صرخد والى اخيه الملك الطاهر في حلب وقالوا لها : هلمّا الى دمشق واذا برز اليك الملك المادل فتعن نعتله وندفمه اليك . وقد سمع المادل شيئاً من هذا القيل فامرسل

الى ابنه الملك المظلم شرف الدين (١٠٥٠) عيسى وهو في دمشق ليستعجل الى صرخد ويحبس الافضل في قلعته . ففر الافضل الى حلب عند اخيه الطاهر وزحفاً معاً الى منبج وهي للعادل واحتلاها واحتلاً كذلك قلعة نجم وانتابا الى حماة فدفع لهما ناصر الدين بن تقي الدين ثلاثين الف دينار صوري فتركاهما وتوجها في طريق بعلبك الى دمشق . وقررا كلاهما انها متى احتلّا دمشق تبقى للافضل ريثما يذهبان الى مصر ويحتلّانها وبعد هذا يرد الافضل دمشق الى الطاهر وتبقى له مصر . بناء عليه حاصرا دمشق وما كادا يحتلّانها حتى حشد الطاهر اخاه الافضل وقال له : يجب ان تبقى لي دمشق وانا ابعث معك جنودي لتذهب الى مصر وتستولي عليها . فقال له الافضل : انك تعلم ان امي واهلي هم ضيوف في حصص على باب غيرهم وقد استحضرتهم من صرخد اليها واعطيتهم لزين الدين قراغا عبد الله ليساعدي . وعليه ارجب ان تترك لي دمشق لتستر فيها النساء . ويلزمك انت كذلك ان تدافع عنهم ريثما نحتل مصر . لكن الطاهر اعترض ولم يرض . ولما رأى الزعماء ما حصل بينهما من النزاع اتم كرههما وانطلق بعضهم الى العادل وبعضهم الى دمشق . واذ ذاك اتفق الاثنان وتوجها الى العادل عتمة في الصلح . واذف العادل الى الملك الطاهر ما عدا حلب منبج واقامية وكفرطاب وبعض المدة . واذف الى الملك الافضل سيماط وسرّوج وراس العين وجلين . ودخل الملك العادل دمشق وذهب كل منهما الى مركزه .

ولما كان الطاهر والافضل يحاصران دمشق حشد نور الدين جيوشه واخذ معه ابن عتبه قطب (١٠٦٠) الدين محمد صاحب سنجار وصاحب ماردين وانطلقوا لينتصروا ما بين النهرين من آل العادل . وما ان بلغوا راس الدين حتى دبّ فيهم المرض في الصيف . وكان الملك القاتل بن العادل في حرّان فأرسل الى نور الدين في المدة . وهذا لما بلغه اتفاق الافضل والطاهر والعادل ولا سيما خبر المرض وافق هو كذلك على المدة . وتبادل الفريقان في الأيمان وعاد نور الدين الى المرحل وعاد كذلك كل واحد الى بلده .

وفي تلك السنة كان معز الدين قيصر شاه متولياً ملطية فزحف اخوه ركن الدين سليمان بن قلع ارسلان وحاصرها وانتزعها منه في حزيران ١٥١١ لليونان

(١٢٠٠م) . وانهرزم مغز الدين قبحر شاه يريد الملك العادل حماه وهذا ونجه الى الرها واعطاه مؤونة . وسار ركن الدين من ملطية الى ارضروم وفيها ابن الملك محمد بن صلتق وهو من السيرت القديمة المملوكة تلك المدينة وخرج الى لقائه . مريباً عن مؤدته وطاعته . لكن ركن الدين قبض عليه وسجنه واحتل المدينة . وانتزع قونية كذلك من غياث الدين كيكسر واخيه . وانهرزم غياث الدين الى سوريّة وقصد الملك الطاهر صاحب حلب واخبره بما وقع مؤملاً بنجده . ولكنه لم يستفد منه شيئاً فانتقل من عنده واختفى . وجعل يطوف من مكان الى مكان حتى انتهى الى قسطنطينية . وبالغ ملكها في اكرامه جداً وزف الى ابنة احد بطارقه العظام . وظل هناك الى ان احتل الفرنج تلك العاصمة كما سنذكر ذلك . وعلى اثر الاحتلال سافر غياث الدين يريد حماه وهو صاحب احدى القلاع . فرأى به وقال له : (١٢٠٢) حبي وحبيبك هذا البلد ديماً يفرج الله تعالى . واقام هناك الى حين وفاة اخيه .

وفي هذه السنة صار غلا . فظيع في مصر لان النيل لم يفيض . كما دقه وأكل البشر . جثت الحيوانات والبشر وتبع الغلا الطاعون . وحدثت كذلك زلزلة قوّضت دوراً كثيرة واسواراً شاهقة في دمشق وحمص وحماة وطرابلس وصور وعكة والسامرة وبلغت الزلزلة بلاد الروم ولكنها لم تكن قوّة في بلاد المشرق . وفي السنة ٥٩٨ للعرب (١٢٠١م) سار خوارزمشاه محمد بن تكش الى خراسان وانتزع مرو ونيسابور من غياث الدين ومن اخيه شهاب الدين لانها كانتا له . ولما سار الى خوارزم بسبب موت ابيه اخذهما غياث الدين . وقد ارسل اليه يقول : ما كنت اتوقع منك هذا بل ظننت انك كنتجدي وتقاتل الصيغين ولكنك أبيت ذلك وألقت بي الضرر . غير ان غياث الدين لم يرد اليه المدينتين المذكورتين صفواً فزحف واخذهما عنوة . ولم يستطع غياث الدين ان يعارضه بسبب داء الثقرن الذي انتابه . وكان اخوه شهاب الدين يبارز يومئذ المنود .

وفي السنة ٥٩٩ للعرب (١٢٠٢م) ونجه الملك العادل ابو بكر بن اتوب صاحب مصر ودمشق جيوشاً كثيفة مع ابنه الملك الاشرف موسى الى ماردين وحاصرها اياماً كثيرة واحتل القرى والضواحي . فتوسط بين الفريقين صاحب

حلب الملك الطاهر غازي بن صلاح الدين وعقد الهدنة بان يؤدي صاحب ماردن الى العادل مائة وخمسين الف دينار فضة قيسة كل دينار ستة دراهم ويخطب له ويكتب اسمه على الدراهم والديناريه. وقبض الملك الطاهر عشرين الف دينار من ذلك المبلغ وانتزع منه قرية قرادي ببلد شبكتان وترك الاشرف وانطلق وفي تلك الفصول كان التركمان يعيشون في البلاد (١٠٨) ويفوزون حتى تمدد على الناس السقر دون جنود وسلاح. وفي تلك السنة عينها عاد العادل فانتزع من الافضل ابن اخيه سروج ورأس العين وجلسين وانتزع منه الطاهر اخوه صاحب حلب قلعة نجم ولم يبق له الا سيمساط فقط. ولما رأى ان عته واخاه قد ظلماه بمث زسولا الى ركن الدين سليمان بن الملك قاج ارسلان صاحب ملطية وقونية وأبدى له الخضوع وخطب وطبع الدراهم باسمه واصبح كواحد من الامراء في بلاد الروم. ثم كتب الى امه فقصدت الملك العادل وتوسلت اليه ان يرذل ابنتها ما انتزعه من يده من البلاد ولكته ورفض توسلها. هكذا عاقب الله سبحانه صلاح الدين بعد موته مثله عاقب هو آل اتابك عندها ارسل اليه صاحب الموصل امه وابنة عته ورفض توسلها. وفي هذه السنة رحل الملك النادل الملك المنصور ابن الملك العزيز من مصر وجعل اقامته في الرها مع امه واخوته خيفة ان يبايحه المصريون بالملكية.

(لها صلة)

